السبعة المتكلمون فى المهد

تأليف

عبد البديع عبد السميع كفافى

دار الفتح
للإعلام العربى

اسم الكتاب: السَّبعة المتَكلمُونَ فى المهد
تأليف : عبد البديع عبد السميع كفافى
المطبعة : دار غريب
القياس : ١٧ X ٢٤
رقم الإيداع: ٤٥٥٤/ ٩٧
الترقيم الدولى: ٣-١١-٥٢٦٩-٩٧٧

الطبعة الثانية
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

الناشر
دار الفتح للإعلام العربى
المكتب ٢٢ ش خيرت- السيدة زينب
ت/ف: ٧٩٢٥٣٢١
المكتبة ٣٢ ش الفلكى - باب اللوق
ت: ٧٩٥١٠٧٣

الإهداء

إلى أمي الغالية

رحمها الله عز وجل رحمة واسعة فهى التى أعطت فى سخاء من غير من ورحمة ليس لها حد، وسهرت وتعبت وجاعت لأشبع، وسهرت لأنام وتابعت ما وزعت حتى أتى ثماره الطيبة.

اللهم أجزها عنى خير الجزاء وأوفاه وأجعلها مع الصديقات فى جنات النعيم أمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

عبد البديع عبد السميع كفافى

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبى العربى الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد

فى هذا الزمن الذى علي فيه صوت المادة، وتربعت على عرش القلوب، وأصدرت أوامرها لكثير من الناس فأذعنوا لها وتلذذوا من الخضوع لها، فثارت الفتن يتلو بعضها بعضا كأنها قطع الليل المظلم، وأشتد ظمأ الإنسان وتملك الجوع من أحشائه...

خففت أنا وأسرعت المسير إلى موارد الروح من كتاب الله الكريم وقرآنه العظيم، وهدى النبى الكريم الرءوف الرحيم سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم لأرتوى من مائه العذب الفرات، وأزود الروح من زاده وهو خير الزاد. حتى تزدهر فروع الإيمان فى قلبى ويتولد الأمل فى أن يثبتنى الله بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويكشف لى الأشياء على حقيقتها ويضيئ على طريقى إليه مصابيح الهدى، فأعرف بعد جهل وأهتدى بعد ضلال وأثبت بعد قلق، وأغتنى بعد فقر.

فلما تناولت من القرآن الهدى، ومن حديث سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم التقى.

حملت على صفحات هذا الكتاب إلى من يقرأه هذا الزاد ليفرح به كما فرحت ويغتنى به كما أغتنيت ويهتدى به مثلما أهتديت ويتلقى منه ما تلقيت من علم الكتاب، ومن الحكمة وفصل الخطاب من نبى الله عيسى عليه السلام، ومن شاهد يوسف عليه السلام ومن إبن ماشطة بنت فرعون ومن شاهد دريد ومن رضيع أمه ومن طفل اليمامة المبارك وهؤلاء جميعاً نطقوا بالحكمة وفصل الخطاب فى أيام الرضاع بكلمات تأسو الجراح وتعلم الحكمة وتجلو الحقيقة وأدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب كل من يقرؤه أو يقرأ عليه وأن يعفو عنى ويغفر لى ما يكون قد تضمنه من خطأ لم أقصده.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى أهله وصحبه

شاهد

يوسف عليه السلام

مصري

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

[سورة يوسف : ٢٥ - ٢٩]

دعاء يوسف

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [سورة يوسف:١٠١].

كلمات شاهد يوسف عليه السلام:

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ● وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٢٦،٢٧].

نحن الآن على أرض مصر كنانة الله فى أرضه ومستودع أسراره فى خلقه، محل رعايته الأزلية، ومرآة قدرته الأبدية، ومخزن نعمه البهية الندية.

بين جنالها الفيحاء، وبساتينها الغناء... بأشجارها الباسقة ذات الفروع الحانية الخضراء... تزدان بعقود الأزهار الضاحكة.. تتدلى منها الثمار الطيبة، تصافح عين رائيها فتستولى على كيانه بجمالها، وتأسر لبه ببهائها هبات النسيم العليل فتستحى منها فتتخدّر بأوراقها الخضراء وتتدثر بها خفراً وحياء.. فتشى بها أهازيج الطيور المفتونة بجمال الأزهار، منافسة أسراب الفراش المتعددة الألوان، المتنقل من فنن إلى فنن فتظنه أزهارا وهبها الله أجنحة تطير بها فى الهواء. وإذا بهذه الطيور تبث الكون إعجابها بصنعة الله فترسل مع الهواء ألحانا عذابا تسبح بها الله العزيز الحكيم وترتل بمزمار داود لحن الكون الأزلى الأبدى لا إله إلا الله.

وعلى ضفاف نيل مصر العجيب حيث ينساب بينها ماؤه الرقراق.. تصافحه أشعة الشمس فيتحول إلى فضه أو لجين ينساب فيبهر العين ويتعبَّد الخيال. ويحتسى الناظر إلى هذه اللوحة البديعة جرعة إيمان بالله سبحانه الذى إستودع مصر كل هذا الجمال. وفجر من أرضها الخصب والنماء.. وكسى منها الوادى بهذا الثوب الأخضر القشيب فستره بستره العظيم.

هنا على هذه الأرض وعلى ضفه من ضفاف نيل مصر العظيم يطل قصر من قصور الملك.. حيث عزيز مصر وأهله يرفلون فى النعيم يطعمون ويشربون المودة والصفاء.

وكيف لا ينعم هذا البيت وقد حباه الله بهذا الفتى الجميل الوسـيم..التقـى النظيف الذى اشتراه العزيز من السيّارة وقال لامرأته:" ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [سورة يوسف: ٢١].

لقد كان العزيز فى حاجة إلى هذا الغلام ليملء لديه فراغاً ناشئاً عن حرمانـه من الولد.. فلما أهل عليه هذا الغلام توسّم فيه أن يسد هـذه الثغـرة فى داخـل نفسه.. ويشع من دفء عاطفته ما يذهب به برد الوحدة والشعور بها الذى إستولى على العزيز فى ذلك الحين.

وأما نور براءته البادى فى وجهه فقد أنزل السكينة فى قلبـه ويطفـئ نـار الأشواق الإنسانية التى كانت تقلق روحه، وتلح فى نسج الأحزان على جدار قلبه، وحتى نتمكن من قراءة أحداث هذه القصة التى نوّه الله بعظمتها وبخطر مكانتـها عندما قال" نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن متخصص لنبأ يوسف ثلاثة فصول تبدأ من حيث إنتهى المطاف ببطل القصة فى قصر العزيز.

فيتحدث الفصل الأول عن يوسف فى قصر العزيز والثانى عن الصراع بـين الفضيلة والرذيلة وإنتصار يوسف عليه السلام والثالث يتحدث عن براءة يوسـف وشهادة الطفل المعجزة والأدلة القوية على هذه البراءة.

الفصل الأول

يوسف عليه السلام

فى قصر العزيز

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾. [سورة يوسف : ٢١]

المشهد الأول
فى بواكير الشباب

إنتهى المطاف بيوسف عليه السلام فى قصر العزيز وهو قصر منيف ظهرت فيه كل مظاهر البراعة الهندسية فى عصور الفراعنة، وبدى عليه كل ما وصلت حضارة القوم فى ذلك الزمان. حيث إرتفع بناؤه وظهرت على جدرانه زخارفهم التى تنطق بديانتهم..ولأول وهلة يدرك الدالف إلى القصر مظاهر الأبهه وعلامات التقدم، وتتمتع كل حواسه بدفقة من دفقات الجمال التى تشفى العليل من مرضه، وتصلح للمكتئب نفسه، فالحديقة التى تصادف هذا الدالف إلى القصر كريمة فى عطائها، فابتسامات الزهور، وضحكات الورود تجيد إستقبال هذا الضيف إجادة تامة فترسل أشعة السعادة إلى قلبه فتغسله من الأحزان بحنان تخشع له الجوارح وتسكن الخواطر، وتنكشف عنه الكروب وتنجلى عنه الغموم، ويبدو وكأنه لم يعرف الحزن قط فى حياته.

وأما ردهات هذا القصر الواسعة فإنها تعطى الأحلام الإنسانية حقها فى الطيران بين جدرانها المضيئة بالسعادة والهناء..هذه الردهات تؤدى إلى حجرات علت جدرانها وازدانت بالنقوش واثثت بأروع ما عرف ذلك العصر من إثاث تتناثر فيها الأرائك الفاخرة المطهمة بناعم الأقمشة بألوان زاهية تغتسل الروح بأضوائها الخلابة. وأما السرر الحانية فإن فراشها الوثير يضم من يلجأ إليه بين أحضانه فيذيب جليد الأحزان والأتراح... وسرعان ما تأخذ الأرواح الطيبة نفسه إلى نوم عميق تطوف روحه خلاله بجنان الأحلام وبساتينها الغناء حيث يكسو الجمال كل الوجود وتنعم الروح بذيّاك الجمال. والحياة فى القصر سريعة الحركة. جياشة القلب توحى بموسيقاه عما ينعم به أهله من راحة البال وسكينة الفؤاد.

الكل يعطى فى سخاء — فربّ القصر يغدق على مجتمعه دون توان أو إبطاء. والخدم والحشم يملئون الأوانى بالإخلاص فى خدمة سيد القصر وسيدته.

وأما سيدة القصر فإنها قد حباها الله سبحانه وتعالى بوجه صبوح تتجلى فيـــه مظاهر القدرة الإلهية فى الإبداع والخلق.. وعلى صحفة هذا الوجه بـــدت آيـــات الجمال كلها واستجابت كل عناصر التكوين الجمالية لبارئ الأرض والســـموات حتى صنع هذا الوجه المضئ فالورد منحها حمرة الخدين ، وأما نهر النيل فأعطاهــــا صفاء العينين، وأما البلابل فإنها وهبتها الصوت الحسن بموسيقاه العذبة، وأما عنقـها فإنه تحلى بطوله قطعة من الجمال الموهوب لها من الغزال الذى كان يرتع فى حديقة القصر فرحاً مسروراً... وهو يسكن على قوام ممشوق يشهد بقدرة الله.. فتبـارك الله أحسن الخالقين.

هذه السيدة تتابع حركة القصر فى نشوة.. وسرور وتنتظر على شوق ســيدها الذى أضفى عليها من الحنان الأبوى ما جعلها تنســــى... أنثاهـــا الكامنـــة فى أحشائها وأمومتها المحرومة من الوليد الذى كانت تتوق إليه..وتنتظر قدومـــه دون أن تلوح فى الأفق بادرة الأمل فيه رغم طول الإنتظار..

فسيد القصر عزيز مصر وحاكمها من قبل الملك. رجل طابت نفسه وصفـت سريرته، وصقلت وجدانه أشعة الحرمان الساخنة..حيث كان محروما مـــن الولـــد لعدم قدرته على الإنجاب.

فهو رجل له من مصريته سمرة النيل، تكسو وجهه بوقار الرجولة، وله مـــــن أرضها طيبة القلب وجميل العطاء..وله من حقولها خضرة تهبه هدوء الطبع ولـــين الكلام...

وقد أكسبه الحكم قوة الشخصية، وجزيل المهابة وهو لا يبخل على مجتمــــع قصره بشئ يكون فيه السعادة والهناء...

ومنذ أن دخل على سيدة القصر وفى يده يوسف عليه السلام وقال لها"أكرمى مثواه عسي أن ينفعنا أو نتخذه ولدا" فقد صدعت سيدة القصر لهذا الأمر وأخذتـه أمراً صادراً من سيدها..لكنها عندما صافحت وجه يوسف قرأت فيه بسرعة غريزة الأمومة المحرومة أنها ستجد فيه سلواها..فقد لمست فيه أنه تعويض عما فاتها مـــــن التمتع بالولد...

ولا غرور فإن يوسف عليه السلام قد حباه الله جمالاً أصبح فيـــه متفـــردا لا يلحق به أحد.. ولا يساويه فيه إنسان فى عصره...

جمال غير عادى تحيط به تجربة العلم والحكمة الموروثة من بيت الدعوة إلى الله فى شخص إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام.

ومسحة من حزن دفين رسّبه فى نفسه موقف إخوته منه... وحقدهم عليه وعلى أخيه بنيامين.

جلس يوسف فى حديقة القصر... واستعرض فضل الله عليه أن رزقه الله الإقامة فى هذا المكان الأمين يغمره عزيز مصر بحنان الأبوة الذى بدأ يصحو فى قلبه عندما رآه.. ويزداد توهجاً كلما صافحت وجهه عيناه ويبدو أنه كان طيب القلب إذ أنه آدرك بفراسته أن هذا الغلام ليس كأى غلام، وإنما هو نوع فريد تبدو عليه علامات النبوغ وعلو الهمة... وسمو الخلال.. وصفاء النفس، ونقاء السريرة واشتعال الذكاء...

ثم إنه فوق ذلك يتمتع بإشراقة إيمان تميزه عن غيره من الصبيان والرجال. فسما به أن تمناه ولدا و لم يترل به إلى مستوى العبيد.. الرقيق الذين كانوا يشقون بهذا النوع من نظام الحياة فى تلك العصور الغابرة على أرض مصر.

جلس يوسف عليه السلام فى حديقة القصر يحمد الله على هذه النعمة.. نعمة الأمان. والأمن التى كان فقدها فى بيت أبيه يعقوب عليه السلام حيث كان يختنق من دخان الحقد الذى كان أخوته يكيدون له به كيداً وصل بهم إلى التخلص منه بأخف أنواع الآثم الذى اقترحه أحدهم وهو إلقاؤه فى غيابة الجب.

تذكر يوسف وقعة الجب... وظلامه الدامس.. ووحشته الضاربة.. والموت الذى كان يهدده بين لحظة وأخرى والقلق الذى إنتاب نفسه فذاق من جرائه أقسى العذاب. وتذكر آلام الوحدة القاسية تأكل فى كيانه وتحطم أحلامه... وتذكر رؤياه التى رآها من قبل وقصّها على أبيه :

﴿ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [سورة يوسف:٤]. وتيقن أن أباه كان على حق عندما أمره بحبس الرؤيا فى صدره... وعندما نهاه عن أن يبوح بها لأخوته قائلاً:

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَان عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [سورة يوسف:٥].

وعندما أحاط به أشباح الجب ظن أن تفسير أبيه لرؤياه قد تبدد..

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة يوسف:٦].

أين العلم..أين الحكمة..وأين تأويل الأحاديث؟ وأين تمام النعمة؟..

لكنه تذكر أيضا وعد الله سبحانه وتعالى له الذى ثبت قلبه وطمأن خاطره عندما قال: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة يوسف:١٥].

تذكر يوسف عليه السلام كل ذلك فحمد الله عز وجل على أن أتاح له العيش فى هذا القصر بعيداً عن نار الأحقاد المشتعلة فى قلوب إخوته أبناء أبيه الذى تسبب إخوته له فى تجرع الآلام والأحزان بسبب إقباله على يوسف وأخيه بنيامين وإيثارهما بقدر من الحب أكثر من باقى الأسباط لوفاة أمهما التى كان قد أحبها.

وأقبل يوسف على الحياة فى القصر سميعاً مطيعاً لأوامر سيد القصر... يؤدى واجباته بإخلاص وأمانة وذكاء تساعده على الوفاء بكل ذلك إشراقة الإيمان الموهوبة له من الله رب العالمين.

وتكاتفت كل هذه الملكات فى رسم صورة يوسف عليه السلام وحفرها فى قلب العزيز الذى تعلق بالفتى فزاده قرباً منه وكثيراً ما كان يطيب له أن ينفرد معه بحديث يتلقى منه مشورة حكيمة تضئ له طريق الحياة..وكان يلتقى أيضاً من بين ثناياه عبارات دافئة تعينه على تحمل أعباء المسئولية... فقرت به عيناه... وسكن له قلبه وشعر فعلاً بأن يد الله قد أمتدت له بهذا الفتى يعوضه ما فاته من الولد...

وتمضى الأيام والليالى... ويوسف يحتسى فيها الصفاء ويتعاطى السعادة وينمو جسده وتسمو روحه... ويتهيأ كيانه.. لما هو مخلوق من أجله.

ويسكب الله فى قلبه نور العلم والحكمة ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف:٢٢].

المشهد الثانى
المأســـاة

إن بشائر النبوة قد تواكبت على كيان يوسف عليه السلام من أخمص قدمـــه إلى أم رأسه..

تجليات الحق..وأنوار الرحيم الرحمن..ونعم الله عز وجل تواترت على قلبـــه فيوضات إلهية...

لقد زاد بريق الأنوار الربانية فى وجهه فامتزجت بأنوار جماله الفريد فبـدت فى هذا الوجه جاذبية موهوبة... وتدفقت على لسانه ينابيع الحكمة الموروثة.. ولعـل أسباب النعيم فى القصر قد دخلت أيضا كعنصر من عناصر الصبا والجمال...

لقد بلغ يوسف عليه السلام أشدّه واستوى وأصبحت لديه المقـــدرة علـى التعبير... والفصاحة والتبليغ... والتحمت فى حركة حياته ملكات النبوة والفتـوة فملك الصلاحية لحمل اللواء... نفس اللواء الذى حمله من قبل آبـــاؤه إبراهيـــم وإسحق ويعقوب ومن سبقهم من الأنبياء والمرسلين...

وتابعت سيدة القصر هذا الفتى بنظراتها واستوعبت كل التغيرات التى طــرأت على كيانه فزادته حسنا وتألقاً.. وزادت وجهه وضاءة وجمالاً...

وشمت فى أنفاسه عبير الشباب... وخافت أن هى تركته أن يـــنى بغيرهــا فتحظى هذه بما هو متمتع به من جمال فى الخلق والخلق وتستأثر دونهــا بكئــوس السعادة معه....

إن المسكينة نظرت إلى يوسف عليه السلام بعين الحسّ فقط و لم تنظــر إليــه بعين القلب... لأنها فى الحقيقة تفقد هذا النوع من العيون.

إن عين الحس لا تتجاوز أشعتها الجسد فقط لكن عــــين القلــب تنفــذ فى الأعماق فتشاهد الأنوار وتسبر الحقيقة.

إن عين الحس لا تثير فى النفس إلا شهواتها وغرائزها أما عين القلب فتفجر فى كيان الإنسان ينابيع الحكمة وأضواء الحقيقة، ونور الفطرة التى فطـــر الله النـــاس عليها.

وللأسف فإن امرأة العزيز لم تر فى يوسف عليه السلام إلا شهوتها فقط وحجبت تماما عن رؤية النبى والرسول فيه.

ظلت امرأة العزيز تقتحم بعينيها كيان هذا الإنسان العظيم وتحاول كبت مشاعرها المتأججة دون أن تنجح فى ذلك.. وأخذت تستلفت نظره بعبارات ترددها على مسامعه أو أفعال تأتيها تبوح ببعض عواطفها... وهو فى داخل دائرته النورانية لا يتعداها ولا ينفك عنها.. ولا يستجيب لانشغال كيانه بالتهيؤ للنبوة.

إنه فى عالم آخر... علم النور الذى يتعاطاه من يد الله فى الصباح والمساء ليستكمل به مقومات النبوة وأسبابها مشغول بالحكمة تتألق فى قلبه يوماً فيوماً... فرح بتجليات الله فى إهابه تغسله وتزيده بريقاً ولمعاناً إنه سعيد بهذا العطاء الربانى والتجلى الإلهي.. ليلة يقضيه فى عبادة الله الواحد الأحد.. ونهاره مشغول بالعمل فى خدمة صاحب القصر ينتظر بشوق اليوم الذى يمارس فيه أعمال الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله.

ومن كانت هذه طبيعته فإنه لا يرى شيئاً فى الحياة إلا ما ينهض به لتبليغ دعوته وما يساعده على أداء واجباتها.

لذلك أخفقت إمرأة العزيز فى توصيل نداء غريزتها إلى سدّة هذا الملك العظيم من عباد الله الصالحين.

فلم يسمع يوسف شيئاً من هذا الهراء... ولم ير فيها غير الفضيلة التى إمتلاء قلبه منها وتغذّى كيانه من شهدها والرضاب. ماذا تفعل المسكينة.

لقد برح الخفاء...

إنها لا تستطيع أن تتحمل أوار هذه الغريزة العمياء تستعر فى قلبها..وتقض مضجعها... ولا تترك لها وقتا من راحة فى الليل أو النهار..

إستولى عليها حب يوسف عليه السلام وأصبح سيدها وأمرها.. وهى التى تأمر فى القصر وتنهى..وتهاب فيه وتسترضى.. فما العمل؟.

لقد وصل الأمر بها إلى نفاد الصبر... وإلى حرقة اللوعة وسيطرت الغريزة وعلا سلطانها فى داخل هذا الجسد المضطرب.. فراودته عن نفسه.

وأمرت بالأبواب فغلقت، وبالستائر فأرخيت، وبالفراش الوثير فعطّر، وهيأت المسرح لإرتكاب أفحش الجرائم..وأبشع أنواع الخيانة...

وغلقت الأبواب وقالت هيت لك

ولم ينتظر ابن يعقوب عليهما السلام لحظة واحدة وإنما جلجل لكلمة الحق... سوطاً يردع به هذا الجسد الثائر ويطفئ به نار هذه الغريزة المشتعلة

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ ﴾ [سورة يوسف:٢٣].

اسم الله عز وجل قد ذكره يوسف.

وما دام قد ذكره يوسف عليه السلام فإن السكينة قد تركزت فى قلبه والطمأنينة سرت فى كيانه ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد:٢٨].

ثم حاول أن يوقظ فى المرأة معنى الوفاء فقال لها:

﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة يوسف:٢٣].

لقد قال الله فى حق يوسف عليه السلام

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف:٢٢].

هذه أول دروس الحكم والعلم: تتدفق على لسان يوسف وقلبه ويحاول أن يلقنّها قلب هذه المرأة لينام حيوان الغريزة فيه.

﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة يوسف:٢٣].

كيف تتصور هذه المسكينة أن فى إمكان يوسف أن يكون خائنا ظالما ؟!!!.

ومن الذى يخونه؟! إنه رجل أحسن إليه واحتوى أحزانه..وجلاها عنه وأبد له بذلك لين العيش وبهجة الحياة... وسرورا عم أرجاء قلبه وائتمنه على أغلى ما يملكه...

بل واعتبره المثل الأعلى له فى الحكمة والعلم والإيمان ودماثه الأخلاق...

ثم هى تتصور أن يوسف يرد له على ما فعله بالدنس والرجس... يلوث بهما ثوبه؟!!!.

ما هذا ؟؟ ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

الفصل الثانى
الصراع بين الفضيلة والرذيلة

لقد سلك يوسف مع هذه المرأة، التى تحولت إلى نار مشتعلة وغريزة مـــوّارة، وأنوثة صارخة، سلك معها مسلك الأنبياء والمرسلين.

إنه وعظها فى نفسشها وأظهر لها قبح قصدها، وسوء عزمها وظلمة المصـــير الذى ينتظرهما معا إذا هو استجاب لها، ولبى رغبتها الآثمة، فهى العاقبة التى تنتظـــر الظالمين، واستعصى عليها فهمت به أن تجبره على تحقيق ما أمرته به بعد أن أظـــهر لها تمسكه بما جبل عليه من عفة وأصالة، وتبدت لها صورته هناك علـــى الجـــانب الآخر... الجانب المضئ بالفضل والطهر والنقاء... حيث موقفه الرائع الجميل!!

فأيقنت أنها تورّطت وأصبحت بعد أن كانت فى القمة فـــوق رأســه قــد تدحرجت وتهاوت أمامه حتى سقطت فى هاوية لم تكن تتوقـــع أن تصـــل إليـــها وتتجرع فى قاعها كأس الهوان...

فأبرزت أظافرها وأنيابها وهمت أن تضربه عادة السيدة مع خادمـــها لتقـــهره وتجبره على السقوط معها إلى الهاوية حتى لا يتميز عليها، وهذا استعلاء منها رفضه يوسف فهم بزجرها متمسكاً بمكانته العالية التى أقامه الله فيها بما آتاه من حكـــم وعلم وهمّ أن يضربها... وتهيأ للطمها لطمة على وجهها تجعلها تفيق من سكرتها، وتنتبه من غفلتها، وتزول الغشاوة عن عينيها فترى مكانها فى الهاوية ومكانة يوسف فى العالية فترعوى غريزتها المسعورة، وتنطفئ رغبتها المحمومة، وتعود إليها نفســـها الضالة، وتبصر حقيقة يوسف فتعلم أنه ليس بغيتها التى أرادت، وليس فيه هدفـــها الذى نشدته من إشباع غريزتها، واطفاء سعيرها المتوقد، إنما هو شـــخص آخـــر يختلف تماماً عن الصورة التى تلقاها جهازها الفاسد.

إنه نبى يحمل قلبا عامراً بالإيمان وعقلاً مضيئاً بالرشد ولسانا ينطـــق بـــالحكم والعلم.

يهتدى الضال بهداه ويأمن الخائف فى حماه.. وتجد الفضيلة لديه أفقها المضئ.

لقد ورد فى تفسير موقف يوسف عليه السلام من هذه المرأة كـــلام كثـــير لعلماء التفسير، فمنهم من فسر"الهمّ" من يوسف على أنه إضمار الإستجابة لامـــرأة

العزيز وتحرك قلبه نحو هذه الفعلة الشنيعة وهو عدد قليل إلا أنه وأن كان قليلا فله أثر سلبى على كثير من النفوس يحسن أن نرد عليه الرد الحاسم بتوفيق الله ولولا أنه يتصل بمقام النبوة ما أعرناه إهتماماً ذلك لأن الكلام فى مقام النبوة يتصل إتصالا وثيقاً بعقيدة المسلم.

ومن ثم فإنه ينبغى أن نلقى الأضواء كاملة على هذا الموضوع لتسلم العقيدة من أية شائبة وتطمئن القلوب وتسلم أيضا من أية عادية من العوادى والله ولى التوفيق.

وهمت به وهم بها:

إن يوسف عليه السلام قد تلقى وحى الله سبحانه وتعالى علماً وحكمة. **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** [سورة يوسف: ٢٢].

بلغ أشده بأن تكاملت شخصيته فأصبح قوى البدن قوى النفس ذكى الفؤاد. صافى القلب فلما صفا قلبه وأصبح طاهراً من كل الأكدار أصبح صالحا لأن يملأه الله بالعلم والحكمة.

فوهبه الله حكما وعلما وكلاهما يمكن الإنسان من الحكم الصحيح على الأشياء والمعانى فيتخذ الموقف المحمود عند رب العالمين. ويقول كلمة الخير وهما معا يضفيان على يوسف عليه السلام العصمة الواجبة فى حق الرسل. جسمه بلغ الكمال فى القوة وقلبه بلغ الكمال فى التقوى وعقله بلغ الكمال فى الرشد فأصبح موقفه حائزا لكل مقومات الحكمة.... مستكملاً كل أسباب الحزم.

وعلى ذلك فإن الله قد بنى هذه العطايا الجميلة والمنح الجليلة التى وهبها عبده يوسف عليه السلام على أنها طبيعة جزاء المحسنين.

إنه تلقى الوحى علماً وحكماً وأصبح للناس إماماً وإذن فإن الهم من جهته يفسر على أنه بعد أن شرح لها استحالة إجابتها إلى طلبها الآثم وعلم إصرارها على الفجور هم أن يوقع عليها عقوبة تردعها وتقلم أظفار حيوانها الوحشى.. لكنه عدل عن هذا لما رأى برهان ربه.

ولكى نحدد موقفنا ينبغى أن نعرف طبيعة موقف كل منهما من الآخر:

أن أمرأة العزيز هامت بيوسف حبا..وأشعل هذا الحب الآثم نيران الغريزة الحمقاء فى جسدها..وهى تريد أن تطفئ هذه النيران بإشباع حيوان الغريزة البهيمية فيها.

فالهم من جانبها هو همّ بإجباره على طاعتها فيما يغضب الله عز وجل حسبما يقود هذا العلم الذى تلقاه يوسف... فالعلم والحكمة ينفران من الأثم والبغى، وأذن فالهم منها هو الإصرار على الخيانة... وعلى قهره حتى يذعن لطلبات الحيوان فى جسدها..وأما الهم من جهة نبى الله يوسف عليه السلام فإنه هم من نوع آخر.

أنه هم رجال الله من الأنبياء والمرسلين.

ولقد كان السياق القرآنى الدليل الواضح على صدق ما نقرره على الوجه الآتى:

١- فإن الواقعة المأساوية وهى مراودة إمرأة العزيز ليوسف عن نفسه قد جاءت فى السرد القرآنى بعد أن بلغ أشده وآتاه الله حكماً وعلماً. أى بعد أن أصبح نبيا مكلفا بالرسالة... والأنبياء والرسل هم حراس الحق والخير والقائمون على حدود الله سبحانه وتعالى يذودون عنها ويدفعون من يريد الإعتداء عليها. فالهم من جهته هو هم من كان حاكما أو قاضيا وظهر أمامه جان يرتكب جرماً مستحقا للعقوبة.. وموقفه موقف رجل الشرطة من لص يهم بسرقة المتاع..فعندما يهم رجل الشرطة فإنه يهم بعمل يزجر اللص ويحول بينه وبين غوايته.

٢- النص جاء هكذا"وهمت به وهم بها"

فالواو بين الجملتين للعطف والعطف يفيد المغايرة وإذن فالهم من جهته غير الهم من جهتها فهما مختلفان وكل هم منهما يستمد طبيعته من المقومات الشخصية لكل منهما... وأين مقومات امرأة ضعيفة أمام مقومات نبى ورسول آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.. إن النبى والرسول طراز ممتاز من البشر... ليس بشراً عاديا وإنما هو متميز بما منحه الله عز وجل من النور والحكمة لأنه المعصوم.

والمعصوم يفقد القدرة على فعل الشر تماماً ولا يستطيعه لقد سلبه الله سبحانه إمكانية فعل السوء . ومنحه القدرة على فعل الخير كاملة..

إن الذى تولى تربية يوسف عليه السلام ليس هو أبوه وليس هو عمه أو خاله... إنما الذى ربّاه هو الله عز وجل إعدادا له ليقوم بتبليغ الدعوة قدوة للناس

وأسوة حسنة. لذلك فإنه نظف باطنه تماماً من كل دواعى الرذيلة كما جمّل ظـاهره وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا. فقد فصل سيدنا موسى عليه السلام عـن أبويه ورباه فى حجر فرعون عدوه منفردا بتربيته وتنشئته بعيداً عن أمـه وأبيـه، وكذلك هو الذى ربى سيدنا عيسى عليه السلام الذى خلقه بغير أب يتولى رعايته، وأيضاً فعل ذلك مع سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسـلم حيـث استقبل الحياه وليدا وكان أبوه عبد الله توفى وتركه فى بطن أمه...

كل هذا شاهد على أن الله ينفرد برعاية أنبيائه ورسله فى جميع مراحل حيـاتهم رعاية تتجلى فيها محبته لهم واصطناعهم لنفسه فتبارك الله رب العالمين.

فمن أسماء الله الحسنى إسمان هما الظاهر والباطن فإذا منح عبداً من عباده النبوة والرسالة فإنه يجّمل باطنه و يجّمل ظاهره فى وقت واحد. فباطنه مشـغول تمامـاً بتجليات الله واشرقاته والإستجابة التامة لدواعى الرسالة..

أى أن عقله الباطن لا ينطوى إلا على رغبات فاضلة مفضلة..وأحلام مضيئـة وهاجة بنور المحبوب الذى شغل كيان المحب المدله.. والمحبوب هنا هو الذى خلـق فسوى وقدر فهدى مست محبته شغاف قلب يوسف عليه السلام، فأضاء الله باطنـه بنوره العظيم:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة النور:٣٥].

أخبرونى بربكم:

هل يتصور الهم السئ من قلب ملأه نور الله؟!! وشغلته تجلياتـه، وأترعتـه دفقات الوصل الإلهى رحيق إيمان يجد حلاوته فى قلبه؟!!

هل يزكى الله يوسف بقوله:"إنه من عبادنا المخلصين" وهـى فى المصحـف بقراءة حفص عن عاصم باسم المفعول، وفى قراءة أخرى باسم الفاعل"المخلصـين" وهو يعلم أن نفسه تحركت بشهوة ولو لبرهة واحدة؟!!

– الجواب هنا لا

لماذا؟

لأنه لحظة واحدة من يوسف يميل فيها إلى ممارسة رذيلة تساوى تماماً أن يغرق الشخص العادى فى الملذات المحرمة أن حسنات الأبرار سيئات المقربين كما يقولون.

هل يتصور أن يتأبى يوسف عليه السلام عن إتيان الرذيلة بظاهره... ويخالف باطنه ذلك برهة واحدة؟!

الجواب أيضا: لا

لأن يوسف نبى ورسول والنبى والرسول... واحد فى شخصيته أحدى فى سلوكه وليس مريضا بمرض ازدواج الشخصية أى لا ينقسم على نفسه أبداً بل يستوى ظاهره وباطنه وينسجم باطنه مع ظاهره حيث يتكون من كليهما الإنسان الفاضل.. القدوة والأسوة الحسنة الذى أراده الله نبيا ورسولاً.

وإذن فسلوكه لا يصدر إلا عما زين الله به قلبه من زينة الإيمان، وكلماته لا تصدر إلا عما زين الله به عقله من الحكم والعلم.

فطبيعة يوسف عليه السلام هى النبوة والرسالة، هى الحكم والعلم، هى الوحى والإشراق... هى الأمتثال لأوامر الله... أما طبيعة امرأة العزيز فهى مخالفة الأحكام الإلهية، والأنغماس فى أوحال الرذيلة، وإذن فيفسر الهم من جهة المرأة بالإصرار على تعاطى الخنى وممارسة الرذيلة.

أما الهم من جهة نبى الله فهو هم من نوع آخر.. هو هم العالم الحاكم..الذى لديه بصيرة يحكم بها على الأشياء حكما صحيحا يأتى فورياً... وحاسما...

لذلك فقد صدم المرأة على الفور بحكمه على ما هى عازمة عليه بقوله" معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى..إنه لا يفلح الظالمون".

برهان ربه:ما هو هذا البرهان الذى رآه يوسف فاطمأن قلبه... وانصرف به عن معاقبة المرأة واكتفى بأن تولى عنها... وأعطاها ظهره وأذن بالسير نحو الباب؟؟؟

اختلفت الآراء حول حقيقة البرهان الذى رآه يوسف عليه السلام فعدل عن معاقبة غريمته.

قال البعض: أنه رأى سيدنا جبريل عليه السلام تمثل له فى صورة أبيه يعقوب يعض إصبعه تحذيرا ليوسف من الوقوع فى الخطيئة...

ومنهم من قال: إنه رأى مكتوبا على الجدار قول الله عز وجـــل"ولا تقربـــوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا"

وقيل ثلاث آيات من كتاب الله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ [سورة الإنفطار: ١٠] ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّـا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِـي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة يونـس: ٦١]. ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ ﴾ [سورة الرعد: ٣٣]. (القرطبى وابـــن كثـير والفخز الرازى وغيرهم) وغير ذلك من التفسيرات...

ولكن الذى يتمعـــن فى القـــراءة، وفى ســياق القـــرآن الكـــريم فى ســرد الأحداث..ويتأمل ما يحدث فى الحياة الإجتماعية ويلم بعادات النــاس فى حيــاتهم المترلية يجد نفسه فى غنى عن ذلك كله..

ويرى الأحداث... وإيقاع الحركة لأبطال القصة... وطبيعـــة الحيـــاة فى القصور.. كل ذلك يتكاتف على إظهار حقيقة هذا البرهان بسهولة ويسـر دون أن نجهد أنفسنا فى البحث عن صورة البرهان..بخيال جعل بعض العلماء يرددون آيـلت من القرآن الكريم لم تكن قد أنزلت بعد إذ أن هذه الآيات من القرآن نزلت علـــى سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أى بعد يوسف عليه الســـلام بالآف السنين.

ولكى نصل إلى معنى كلمة" البرهان" هذا نتمثل أمامنا الموقـــف الـــذى رآه يوسف عليه السلام من خلاله إمرأة العزيز سادرة فى غيّها..مصرة علــــى تحقيـــق رغبتها الآثمة ولو أدى ذلك إلى إستعمالها العنف مع يوسف عليه السلام.

يوسف ثابت كالطود على أرض الفضل والفضيلة ولو أدّى ذلـــك إلى فعـــل خشن يردعها به.

ويظهر هذا البرهان فينثنى يوسف يوسف عن عزمه تأديب هذه المرأة ويـــولى ظهره لها منصرفاً نحو الباب وتحاول المرأة أن تسبقه فتجذبه مـــن دبـــر القميـــص فتمزقه... وألفيا سيدها لدى الباب.

هذه هى الصورة الكاملة للموقف كما ترسمها حركات أبطالهـــا... كمـــا تقدمها لنا أعمالهم... وأقوالهم"وألفيا سيدها الباب".

ومن ثم يتضح لنا أن البرهان الذى رآه يوسف عليه السلام فاطمأن وعـــدل عن تأديب امرأة العزيز يتعلق بسيد القصر.. العزيز ويكون الضمير فى كلمة"ربـــه" عائداً على العزيز.

فعندما إحتدم الصراع بين الغريمين رأى يوسف علامة تدل على أن العزيز قـد دخل القصر.. والآن هو موجود به...

فالبرهان هنا هو دليل وجود العزيز داخل القصر وأنـــه الآن فى طريقــه إلى حجرته التى هيأتها زوجته مسرحاً لجريمتها المزعومة... والتى نسجتها من خيـــوط أوهامها تحت سيطرة غريزتها المشتعلة.

ذلك أن العزيز هو سيد القصر وعندما يدخل القصر تصحب دخوله حركـــة غير عادية تدب بين كل من فى القصر من حراس ومن خدم وحشـــم... هـــذه الحركة غير العادية التى تصدر من الخدم والحشم إذا أحسوا بســـيدهم مقبـــلا... إظهاراً لهيبته وإحترامه وتوقيره...

همهمة ثم ضجة وضوضاء تعلن وصول الأمير بقصد التنبيـــه والتنبـــه ليقـــوم الجالس ويسكت المتكلم، ويتحشم الهاذر... ليتهيأ الجميع لتعظيم الأمير وتحيتـــه تحية الإجلال... والتوقير ويعزز هذا التفسير سياق السورة من الوجوه الآتية:

١- إن العزيز إشترى يوسف عليه السلام صغيراً فى السن من السيارة" قـــال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه".. ومادام قد اشترى بالمال فإن مركـــزه فى المنزل لا يزيد على أنه "عبد" وأصبح مربوبا لهذا العزيز كما كانت العادة تجـــرى به فى ذلك الزمان.

فإن أكملنا الآية بقول الحق" عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا فمـــا زال هـــذا العزيز هو رب البيت ورب القصر.. والنظرة إلى يوسف حتى هذه اللحظة نظرة إلى عبد مربوب لسيد القصر.

٢- قال يوسف عليه السلام لامرأة العزيز حين روادته... معاذ الله إنـــه ربى أحسن مثواى" فالعزيز أمر المرأة عندما إشترى يوسف وقدم به إلى القصر بقولـــه" أكرمى مثواه... عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً" فهو يذكر تماما صنيع هذا العزيـــز معه وفضله عليه بإحسان مثواه.. الذى يجب عليه أن يتلقاه بالوفـــاء والعرفـــان لا بالجحود والنكران.

٣- إن يوسف عليه السلام يكلم المرأة ويكلم كل من اختلط به أو عاملـه بلغة ذلك الزمان ومنها أهم يجعلون من العزيز وأمثاله" رب القصر" ومن الخـادم أو العبد مربوبا لهذا السيد.ونلمس ذلك فى قول يوسف عليه السلام للسجين الـذى عرف أنه ناج" أذكرنى عند ربك" فالمخدوم دائما عندهم " رب".

ومن ثم فهى لغة القوم وقد قال الله سبحانه وتعالى ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [سورة إبراهيم: ٤]. وبذلك نقول أن البرهان الذى رآه يوسف هنـا هـو الحالة..والحركة.. والنشاط الذى يكون عليه أهل بيت العزيز.. ومـا يصحب دخوله القصر من صيحات تنبه الغافل من الخدم والحشم.. وما يتجلى فى الصـورة من تنبه اليقظ منهم وتنبه للغافل بقدوم العزيز ليتهيأ الجميع لاستقباله الأسـتقبال اللائق به.

هنالك أطمأن يوسف بعد مالاحت أمامه صورة العزيز..فعدل عـن عزمـه معاقبة هذه المرأة وولى ظهره عنها..قاصدا باب الحجرة وهى وراءه تصر علـى أن تعوقه لتتمكن من سبقه إلى سيدها لتبادر بالصاق التهمة الشنعاء به وفى أعماقـها هدير إنفعالاتها المصطخبة... ومشاعرها المتضاربة فمزقت القميص من دبر خشـية أن يسبقها بشرح الواقعة للعزيز.. وهو لا محالة مصدقه..لأنها تعلم مكانته عنده... فيسوء موقفها... وتقع فى حرج الدفاع عن نفسها المرعوشة وكيانها المرتعد..

وإذن فـ"برهان ربه" الذى رآه يوسف عليه السلام هو العلامة التى تصحـب دخول رب البيت بيته أى ما يقترن بذلك من تنبيه وتنبه من جانب الحراس والخـدم ليقوم الجالس ويسكت المتكلم ويتحشم الهاذر.. إجلالا للعزيز...

وهذه عادة مألوفة تحكم سلوك الناس جميعا.. فإن أهل البيت فى أى أسـرة يستشعرون أقدام رب البيـت عليـهم... فيتـهيأون لا سـتقباله. الأطفـال بأفراحهم... والكبار بتحشمهم وهكذا... ومن ذلك فإننا أذا أخذنا بوجهة نظر البعض من العلماء الذين يجعلون من الضمير فى كلمة" ربه" يعود إلى الله. فإن هـذا لا يغير شيئاً مما أخذنا به..ذلك أن المرأة عندما احتالت فأحكمت الحيلة، ودبـرت فأحكمت التدبير لتشبع رغبتها الآثمة كانت قد وضعت فى الإعتبار أن يتم ذلـك فى غيبة سيدها.. بعد أن يخرج لعمله..

ووضعت فى الإعتبار أن تتم الجريمة وتستنفذ غرضها قبل عودة الأمير وهى على علم تام بموعد غدوه وموعد عودته.

وإذن فعودة الأمير فى هذه الساعة إلى قصره قد جاءت مفاجأة لها.. وعلى خلاف حساباتها... إذ أنها على يقين من نظام حياة زوجها... خروجاً من القصر وعودة إليه كل ذلك يقع بنظام مألوف.. معروف التوقيت..محسوب بالساعة والدقيقة...

وهى قد تحسّبت أن تنتهى من جريمتها ولما يأت الأمير وعندئذ تتمكن من إزالة آثار الجريمة ومحو أدلتها..وتبدو الحجرة..وكأن شيئاً لم يقع.

جاءت عودة سيد القصر على غير المألوف من نظامه وكان ذلك سبباً فى خيبة جريمتها وخيبة أملها وإحباط هدفها الرذيل... ما الذى حدث وغير من مألوف الأمير فعاد فى غير وقت عودته...؟!!! هنا تدخلت العناية الإلهية التى أحاطت بيوسف منذ طفولته وصباه... هذه العناية الخاصة التى يشمل الله بها الأنبياء والمرسلين.

حرك الله سبحانه العزيز إلى قصره.. على غير مألوف عادته فوقر فى قلبه سبب.. أى سبب يدفعه للعودة إلى قصره.

إذن فمجئ هذا العزيز إلى القصر فى هذه الساعة عمل من أعمال الله سبحانه تم بتدبيره.. انقاذا ليوسف حتى لا يقع منه ما عزم عليه من فعل خشن يردع به هذه المرأة الجموح... وينقذ المرأة من أوهامها وينتشلها من ظنونها.

وينقذ الأمير نفسه وما يضمه بين جناحيه من حب ليوسف عليه السلام وتقدير له وإجلال لشخصه الله سبحانه هو الذى حرك فى نفس العزيز الرغبة فى العودة إلى قصره قبل موعده المعهود والمألوف لأى سبب عنّ له...

لعله قد نسى شيئاً مما يحتاجه فى العمل أو نسى أن ينبه إلى أمر يريده أن يتم فى القصر قبل عودته أى شئ أى أمر المهم أن الله سبحانه ساقه بذاته إلى منزله ليعود فى هذه اللحظة التى احتدم فيها الصراع بين قوى الخير فى يوسف عليه السلام وقوى الشر المستعمرة فى كيان هذه المرأة المشتعلة فى قلبها.

وقد حقق الله حكمته فعلا بعودة العزيز إلى قصر فى هذه الساعة الحاسمة. فقد تغّير كل شئ...

تغير الجو النفسى... وخرجت إنفعالات من بؤرة الشعور لكل أبطال المشهد، واستقرت إنفعالات أخرى. خرج من بؤرة شعور يوسف عزمه على تأديب المرأة وخرج من بؤرة شعور المرأة رغبتها فى إجبار يوسف على فعل السوء واستقرت فى بؤرة شعور يوسف محاولة الإنصراف من المكان... واستقر فى بؤرة الشعور بالنسبة للمرأة التملص من الجريمة التى عزمت عليها ومحاولة إلصاقها بيوسف عليه السلام..وبذلك تحقق مراد الله عز وجل. ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [سورة يوسف: ٢٤]. وتم ذلك بتغير توجه المرأة إلى الهجوم الوقائى ضد يوسف ويطل البرهان هنا بمعناه الذى اخترناه وهو ما يصحب قدوم الأمير من تنبيه وتنبّه من جانب الخدم والحشم والحركة غير العادية من جانبهم والتى يعرف منها تواجد العزيز بالقصر حيث يقوم الجالس.. ويسكت المتكلم... ويتحشم الهاذر احتفاء بشخص سيد القصر.

ويكون كل ذلك برهان الله الذى رآه يوسف لأنه تم بتدبير الله ومراده وهذا ليس غريباً على العناية الخاصة التى يبذلها الله لأنبيائه ورسله فى جميع مراحل حياتهم... وجميع حركاتهم وسكناتهم... وفى كل مواقفهم لأن الله قرر فى حق يوسف عليه السلام "إنه من عبادنا المخلصين".

ويكون الله قد حرك العزيز..وأدخله القصر.. فتنبه الحراس فقام الجالس من الخدم والحشم، وسكت المتكلم وعلت الصيحات ايذاناً بمقدم الأمير.. وهذا هو البرهان الربانى على العناية الآلهية التى خص الله بها نبيه يوسف رآه يوسف رأى العيان ويكون الفضل فى كل ذلك لله رب العالمين.. فلما رأى يوسف ذلك ولى ظهره بسرعة نحو الباب ليلقى العزيز الذى هو متأكد من حبه له وأطمأن إلى هذا الرصيد من الثقة والحب لدى العزيز له لكن المرأة خشيت كشف أمرها فعزمت على سبقه إلى الأمير وأرادت أن تعوقه فقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب والقرآن أولى بسرد السياق ﴿ **وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ**

عَظِيمٌ ● يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [سورة يوسف:٢٥: ٢٩].

واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم.

ولقد أثارت عبارة" لولا أن رأى برهانه ربه" كثيرا من غبار الشك عند بعض المفسرين الذين تقول عباراتهم أنه جرى فى خاطرهم أن يوسف تعرض لوخز الشيطان وكاد يضعف أمام إغراءات هذه المرأة والعياذ بالله ونجد غبار الشك هذا فيما نقرأه فى كتاب" ظلال القرآن" للعالم الجليل الأستاذ الشهيد سيد قطب فى المجلد الرابع ص ١٩٨١ طبعة الشروق" وهو ما يأتى بالحرف الواحد.ولولا أنى وجدت ذلك ورد على لسان بعض العلماء غيره ما ناقشته، ولولا أن الأمر يخص نبياً من أنبياء الله وعصمتهم واجبة ما احتفلت به.

ويقول هذا العالم الجليل سيد قطب

"إما الذى خطر لى وأنا أراجع النصوص هنا..أراجع الظروف التى عاش فيها يوسف فى داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة. وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعد ما أوتيهما... الذى خطر لى أن قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [سورة يوسف: ٢٤]. هو نهاية موقف طويل من الأغراء بعد ما تأبى يوسف فى أول الأمر واستعصم. وهو تصوير واقعى وصادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ثم الإعتصام بالله فى النهاية والنجاة. لكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعرضة المتقالبة — لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته بالنسبة فى محيط القصة وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك.

نذكر طرفى الموقف بين الإعتصام فى أوّله والإعتصام فى نهايته مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص ونتصور الظروف أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية وما كان يوسف سوى بشر نعم إنه بشر مختار ومن ثم لم يتجاوز همه الميل

النفسى فى لحظة من اللحظات فلما رأى برهان ربه الذى نبض فى ضميره وقلبه بعد لحظة الضعف الطارئة عاد إلى "الإعتصام".

وإنى أرد على هذه الخواطر التى خطرت لأستاذنا الشهيد سيد قطب ليطمئن ويطمئن غيره.. على سلامه موقف سيدنا يوسف فى جميع مراحل هذه التجربة الصعبة من بدايتها وأوسطها ونهايتها على الوجه التالى:-

أولا: إن الهم من جانب نبى الله يوسف عليه السلام لم يقع منه فى لحظة ضعف.

فأنبياء الله ورسله لا يعتريهم الضعف أبداً فى مثل هذه المواقف.. وإنما هم يتناولون الأمور بالعزم والقوة. قوة الإرادة وقوة الوجدان.

ودليلنا من القرآن أن الله عندما أمر عبده ورسوله يحيى عليه السلام يأخذ الكتاب قال له:

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [سورة مريم: ١٢].

فالأنبياء لا يمرون بلحظة الضعف ولو برهة فى مثل هذا المقام بالذات ذلك لأن النبى والرسول لو ضعف لحظة واحدة فى مثل هذا الوضع فإن هذا يفيد زعزعة القيم لديه وهو مستحيل فى حق الرسل.

ثانيا: إنه يقول إن يوسف بشر..ونقول لأستاذنا: نعم إنه بشر ولكنه بشر يوحى إليه.. وإن الروح المنشغلة بتلقى الوحى روح ممدودة بقوة الله .. متصلة بجبريل عليه السلام الذى قال الله فى حقه:

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [سورة النجم: ٥]. **﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾** [سورة التكوير: ٢٠].

ومن كان ملحوظا بعناية الله محروسا برعايته مشمولا بنظرته فهيهات هيهات أن يضعف برهة واحدة ألم تسمع دعاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم" اللهم احرسنا بعينك التى لاتنام، وصنا بركنك الذى لا يرام، وأعزنا بعزك الذى لا يضام".

إذن لم يضعف يوسف عليه السلام لحظة واحدة بل كان قويا شديداً فى ردعه لسلطان الهوى والنفس البادى أمامه فى شخص امرأة العزيز.

ويعزز هذا الإتجاه ما يأتى:-

أولا: وصف الله سبحانه وتعالى لسيدنا يوسف فى نفس الآية بأنه من عباده المخلصين (باسم المفعول) فقال: "كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين".

وإنا نرى إبليس (الشيطان) يقر بعدم قدرته على إغواء عباد الله المخلصين فى قول الله عز وجل فى ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ• إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [سورة ص: ٨٢- ٨٣].

وإذن فقد فقد أقر بعجزه عن إغواء هذه الطائفة التى استخلصها الله من بين عباده ليكونوا أهلا لحمل رسالته.

ثانيا:- أن الله عز وجل قد أنذر الشيطان وعرفه حدود سلطانه فى إغواء بنى آدم فقال عز من قائل ﴿ **إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً** ﴾ [سورة الإسراء: ٦٥].

وبذلك يكون سلطان الشيطان قد إنحسر تماما عن يوسف، حيث وهبه الله سبحانه وتعالى حصانة تحول بين الشيطان وبينه بإعتباره من هؤلاء الخاصة الذين عناهم بقوله "عبادى".

فلا يمكن للشيطان الإقتراب منه وتاج النبوة فوق رأسه يتلألأ نورا وضياء يفرّ من الشيطان وبدأت بذلك أول خطوة خطاها فى رحلة التمكين ﴿ **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [سورة يوسف: ٢١].

فعندما برزت أمامه معالم هذا البرهان " برهان ربه" وهو حركة الخدم والحشم والعبيد، يصدرون الضوضاء إيذانا بحضور أمير القصر فغيرت بؤرة الشعور فى نفس نبى الله يوسف. فبعد أن كانت رغبته فى تأديب هذه المرأة وتطبيق حكم الله عليها تحل بؤرة الشعور منه. أصبح الشعور بالعناية الإلهية التى تحفه منذ طفولته يحتل هذه البؤرة وأيقن أن الذى حرك الأمير ليعود لبيته فى هذه الساعة بالذات.. هذه العودة غير المتوقعة إنما هو الله سبحانه وتعالى الذى يحفظه ويرعاه فاستسلم لقاء الله واتجه بشعوره للفرار... " واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب".

وقد صحب هذا التغير فى بؤرة الشعور الذى حدث لنبى الله يوسف تغير مماثل لهذه المرأة الفائرة فبعد أن كانت مركزه على النيل من يوسف عليه السلام تغيرت إلى استغلال ذكاءها وحب الأمير لها فى التملص من إثمها والقاء أقذار الخطيئة على المجنى عليه نبى الله يوسف عليه السلام.

" قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم" والعجيب أنها كشفت بذلك عن تعلقها بيوسف دون أن تدرى ويتضح ذلك مما يأتى:-

أولا: أنها جعلت من نفسها خصما وحكما.. فلو أنها تشكو من شخص عادى لاكتفت بذكر الواقعة فقط وإسنادها إلى هذا الشخص تاركة لسيدها تحديد تحديد مسئولية المشكو فى حقه والعقوبة التى يستحقها إما أن تجعل من نفسها سلطة إتهام فإنها بذلك تعطى لنفسها حقا ليس لها تمهيد للحق الآخر التالى وهو حق العقاب.

ثانيا: أنها حددت العقوبة الموجبة ألا يتعداها اذ ربما استشاط العزيز غضبا على هذا الذى تجرأ واقتحم حرمه وحاول إلحاق العار به بتدنيس عرضه وتلويثه لشرفه فحكم بإعدامه.

فهى قد خشيت ذلك لأنها مازالت تحبه. وما زالت طامعة فى تحقيق مأربها منه ثم هى واثقة من حب الأمير لها. وتحت سيطرة هذا الحب سينفذ لها ما تريد فاختارت عقوبة تضمن له بقاءه على قيد الحياة وهى عقوبة السجن. أو التعذيب. وسواء تحقق السجن أو التعذيب فإن ذل يوسف كامن فيهما وفى حالة ذله يحيا أملها فى قضاء مأربها منه فى يسر وسهولة وفى الوقت نفسه فإنها ستنعم برؤياه ومعايشته وتقدم ما تغريه به فى ساعات تختلس فيها التحدث إليه إشباعاً لطبيعة حواء فى داخلها وفى كل منهما إبقاء لشخص محبوبها الذى ملك منها الفؤاد.

وإذن فهى مازالت على الأمل فى الوصول إليها تحيا.. وتتعلق به والشاهد على ذلك حديث مع نسوة المدينة بعد شيوع الخبر واستقبالها لهن فى بيتها وقولها لهن ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [سورة يوسف: ٣٢].

الفصل الثالث

ويتحدث هذا الفصل عن القضية التى تولدت عن موقف كل من يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ثم يتحدث عن براءة يوسف وشهادة الطفل فى مهده ثم الأدلة القوية على البراءة وعلى سلامة موقف العزيز وسلامة حكمه ونخص كل فرع من هذه الفروع ببحث على حدة.

المبحث الأول

القضية

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ● قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ● وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة يوسف: ٢٥- ٢٧].

انعقد مجلس القضاء.. القاضى فيه هو العزيز الذى فتح التحقيق واستمع لدفاع الخصمين.. فى سعة صدر. وفتح التحقيق على هذه الصورة حكمة ظهرت من هذا العزيز حكمة ليست غريبة على المصريين، فالمصريون أهل حضارة صقلت وجدانهم، وأنارت عقولهم وهذبت سلوكهم ومنحتهم مقدرة على الحكم على الأشياء ومكنتهم من أسباب هذا الحكم من التريث والتأنى والصبر، والحلم، وسداد الرأى.

ولو كان هذا العزيز أحمق.. أو جاهلا لضرب عنق يوسف عليه السلام مبقيا على زوجته الخائنة ومصدقا إياها تحرزا من إشاعة تسرى فى المجتمع مسرى النلو فى الهشيم. وكان هذا كافيا لأن تقبر هذه القضية فى حينها وإلى الأبد..

ولكن الأمير فتح التحقيق لأسباب:

أولا: إن المتهم يوسف حبيبه الذى قرأ بحسّه المضيئ فى صفحة وجهه كلمات الفضل والفضيلة، واكتشف فى إهابه كنزا من كنوز مكارم الأخلاق... وصدقت الأيام رؤيته وهو أول من أكتشف طبيعة هذا الإنسان الخيِّرة التى لا يتصور أن تهم برذيلة. وهو الذى صدّق خواطره من جهة يوسف فى كل يوم يمر عليه فى القصر.. إذ أن كل يوم يمرّ يشهد ليوسف بالإستقامة..والقصد... والذكاء والعفة.

ثم هذه الإشراقة الإيمانية التى تزداد يوما فيوما سعة ولمعاناً فى وجه يوسف المضئ وهذا السلوك الفاضل الشريف الذى يعطر قصره وكلما مرت دقيقة فاح عبقه فى أرجائه.. وهذه الحكمة البادية فى مواقفه وتصرفاته...

أن كل هذا الحشد الهائل.. من المناقب الشريفة التى تحلّى بها يوسف كافية لطرد جحافل من ظلام الشك أو بجرد التوهم أن هذا الملاك يستطيع أن يفعل شراً.

ثانيا: إن الأمير يخاف على جبل الثقة الأشم الذى أقامته تصرفات يوسف السلوكية فى قلب هذا الأمير.. يخاف على هذا الجبل من التصدع لأن هذا لو حدث فسيأتى على كل القيم التى يتزود بها هذا الأمير فى حركة حياته.. فيتصدع قصر الأحلام الذى بناه فى داخله على أخلاق يوسف.

إن هذا لو حدث لكان فيه القضاء عليه نفسه.. وستكون الخسارة فادحة..إذ أنه سيفقد بذلك المثل الأعلى وستهتز هذه الصورة المضيئة التى تملأ عليه كيانه.

هذه الصورة المضيئة التى زاد تألقها ما أفاض الله به على يوسف من الحكم والعلم.. وبالتأكيد سبق هذا العطاء الإلهئ ما كان من امرأة العزيز من مراودته عن نفسه.. وبالتأكيد فإن بوادر هذا الحكم وهذا العلم قد ظهرت فى شخصية يوسف عليه السلام وفى حركة حياته.. زاد النور، واستوت الشخصية وطاب السلوك فازداد تعلق العزيز به... وزاد إحترامه إياه.. وبدت أمام عينيه الثمرة الطيبة التى توقّعها على هذه الشجرة التى فرح بها... وقال لامرأته عندما حازها فى يده" أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا.."

ثالثا: إن هذا الأمير كان قد إتخذ يوسف ولدا... أثبتت الأيام صدق فراسته، ولقد ملأ يوسف فراغ الولد عند هذا الرجل بجدارة واستحوذ على جميع مشاعر الأبوة التى حرمت طويلا.. من وجود الوعاء الذى يتلقاها فأصبح تعويضاً امتدت

به العناية الإلهية ومست به شفاف قلب هذا الأمير فأست جرحه وعالجت شجون نفسه.

فلو حدث ما أفترته المرأة لانهدم صرح هذا الأمل وانطفأت مصابيحه المضيئة واحتوى الظلام كل أحلامه وانكسر القلب الذى كان قد امتلأ بحب يوسف وتقديره واحترامه..

والأمير لا يريد ذلك أن يحدث

رابعا: إن الحسن الذى تمتع به يوسف يقدم العذر لكل امرأة تتصبب به وتنشغل بحبه الليل والنهار وربّما تكون امرأته قد وقعت فى حبائل هذا الحسن وشراك هذا الجمال..وهى مهما كانت امرأة وضعيفة..فسولت لها نفسها أن تخطئ هذا الخطأ.. وفى الصلح والغفران ما يكفل غسل قلبها.. وتنقيته من هذه الأوشاب.

كل هذا يشهد لهذا الأمير بالحكمة والنُّبل.

كانت هذه بعض الأسباب التى حدت بالأمير أن يفتح التحقيق.. فى هذه الجريمة النكراء.

أقوال الخصوم:

قالت امرأة العزيز: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم:

فهى بهذا تتهم يوسف بأنه أراد أن يلحق بها أذى وسوءاً... وفى هذا تلميح بإشارة وليس إفصاحا بعبارة..

ذلك لأنها خبأت فى هذه الألفاظ حقيقة الجريمة التى تريد أن تلصقها بيوسف.. فهى لو استعملت الألفاظ الصريحة لقالت:

ما جزاء من أراد أن يزنى بأهلك

ولكنها سترت صريح العبارة بكلمة"سوء" وتركت للعزيز تفسير قصدها.

أقوال سيدنا يوسف فى التحقيق:

قال: هى راودتنى عن نفسى

وكان صريحاً فى قوله قويا فى دفاعه فصيحا فى دفع التهمة عن نفسه وهذه طبيعة الأنبياء لأن الفصاحة واجب (فى حقهم).

المبحث الثانى
براءة يوسف تظهرها أقوال الشاهد. والأدلة على أن الشاهد طفل فى المهد

كل من الخصمين قال دفاعه وأبرز حجته. وهذه الجريمة عسيرة الإثبات لأنها وقعت فى مخدع الأمير باحتياطات واستحكامات قوية استعملت فيها المرأة كل ما لديها من مكر، وما هى مجبولة عليه من حيلة.

وعلى ذلك فالحكم فى هذه الواقعة يحتاج إلى دليل يطمئن إليه القاضى فى تكوين عقيدته إذ الأقوال صادرة من شخصين عزيزين لدى العزيز؛ أما المرأة فهى زوجته ولها مكانة عنده تجعله يطرد ذهنه كل شبهة سوء تنال من هذه المكانة، حتى عقله الباطن يرفض ذلك بشدة وذلك لحزنه الناتج عن شعوره بالفشل معها فى إعطائها الولد مما جعل وجدانه يرفض إتهامها بالمعصية إذ أن ذلك يؤرقه إذا ما ثبت فى حقها..

وآما يوسف فإنه الحبيب لديه الأثير عنده بإعتباره الأمل المتوقّد فى قلبه الذى إرتاح له ووجد فيه العزاء عن فقدان الولد من صلبه وحصل منه على الطمأنينة القلبية والسكينة التى ثبّتت خواطره. وأضاءت جوانب قلبه.

فهو متمسك بصورة يوسف المضيئة فتشبث بشعلة الأمل ولا يريد لها أن تنطفئ إذ لو أنطفأت هذه الشعلة فإن الظلام سيسود أرجاء قلبه وفى هذا الظلام تتحرك أشباح الشك لتقرض بأنيابها أوراق الأمل الخضراء، وزهوره اليانعة على فروع قلبه الفرح المسرور فيتوقف فى هذا القلب موكب الحياة الجياشة التى تجعله يقبل على الناس بصدر سليم، وعطاء متواصل، ووجه بشوش، وأقدام ثابتة على طريق الحب الكبير للناس أجمعين ولو حدث مثقال ذرة من شك فى يوسف..لأدبر عن الناس ولما عاد إليهم مرة أخرى وإذن لابد من البيّنة التى تظهر بأضوائها الخيط الأبيض فتميزه عن الخيط الأسود.

فالشاهد لا يلقى فى مجلس القضاء كلاماً..إنما هو ينثر الأضواء فتظهر الحقيقة بألقها الإخّاذ وتطمئن النفوس.. وتهجع الخواطر.. ويحصحص الحق..ليسعد البرئ ويرتدع المخطئ.

وهذا هو قانون العدالة

قانون الله...

من أين الشاهد:

إن الأبواب السبعة كانت مغلّقة... أى محكمة الإغلاق ولا يتأنى لأى كائن من كان يخشى من إطلاعه أو إحساسه بالواقعة أن يدلف إلى مخدع العزيز..

ولم تترك إمرأته فرصة ولو ضئيلة لتسرب الحركة من داخل الحجرة لتطرق أية أذن من آذان مجتمع القصر... وإن المتهم نبى من أنبياء الله معصوم من قبله عز وجل ومحفوظ برعايته والله قادر على كل شئ... وقدرته مطلقة... وآن الأوان أن يتحمل النبى أعباء الدعوة إلى الله.. وأن تظهر نبوته أمام الناس وأن يمارس هذه الدعوة بعد أن أتاه الله حكماً وعلماً... وآن الأوان للعزيز أن يتلقى الإجابة على خواطره وأحاسيسه من جهة يوسف منذ أيام صباه حتى هذه اللحظة الحاسمة العصيبة... والإجابة تكون من الله سبحانه الذى خلق يوسف واجتباه.. فى صورة معجزة يؤيد بها هذا النبى ويثبت بها قلب العزيز وأن الذى ينطق هذه الإجابة المعجزة لابد أن يكون غير متوقع منه.. النطق بالشهادة.. فلا بد أن يكون طفلا...

وهذا الطفل هو ابن قريبة للملكة كانت تخدمها... فى القصر.. وكانت الملكة تحب الأطفال بسبب حرمانها منهم.. وقد طاب لها أن تخصه بمكان فى حجرتها.. ولم تخش وجوده عندما عزمت على مقارفة ذنبها فهو طفل فى المهد.. لايدرك شيئاً ولا ينطق بلسان فلم تعبأ بوجوده وهى تعد مسرح الجريمة.

نطق الطفل..وتكلم

فماذا قال؟ قال

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ● وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٢٦- ٢٧].

سندنا فى أن هذا الشاهد كان طفلا..

أولا: - من النصوص - النقل

نقل إلينا المفسرون ومنهم الأئمة ابن كثير والقرطبى والفخر الرازى وغيرهم فإن الإمام عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك قوروا أن ذلك الشاهد صبيا انطقه الله تعالى فى المهد فقال ابن عباس رضى الله عنهما:

تكلم فى المهد أربعة صغار: شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون - وعيسى بن مريم عليهما السلام وصاحب جريج (صدق رسول الله ﷺ).

ثانيا: العقل

أن سياق الأحداث يدل دلالة واضحة على أن واقعة مراودة امرأة العزيز لسيدنا يوسف عليه السلام جاءت بعد أن آتاه الله عز وجل حكماً وعلماً وأصبح بالفعل نبياً ورسولاً مكلفا بالبلاغ وحمل لواء الدعوة إلى الله...

إذ أن هذه الفترة قد شهدت أمرين:

الأمر الأول:

يتعلق بيوسف عليه السلام: وهو أن سلوكه الفاضل فى القصر ونّموه النّفسى وحسن عشرته، وبره بسيد القصر وهو العزيز قد علق قلوب المخالطين له المشاركين معه فى حياته به وعلى رأسهم العزيز.

وإن لين العيش وحسن معاملة الأمير له وما تمتع به يوسف من حظوة قد خلق مجالاً ينمو فيه جسده نمواً فيه ثراء وفيه إكتمال.

فإذا أضفنا إلى ذلك نور النبوة والرسالة وقد بدأ يسطع فى جبينه وامتزج مع عناصر الجمال والحسن فإننا نعرف إلى أى حد وصلت صورة يوسف من الكمال والجمال والجلال... والجاذبية.

لقد أضفت عليه النبوة والرسالة من حسن البيان ووضاحة القول وحسن السمت وسلامة الوجدان ما أكسبه جاذبية تشد إليه كل من يلقاه ولو مرة واحدة فما بالك بمن تعيش معه كل دقيقة من ساعة وكل ساعة من يوم يمر عليها داخل هذا القصر المنيف.

الثاني: يتعلق بامرأة العزيز

وهو أنها أنثى فتية.. تتمتع بقسط من الجمال والحيوية... وليس وراءها أي مثل من المثل العليا ليشغلها عن ضجيج غريزتها ويطفئ نار حواء المشتعلة في كل جزء من كيانها وهي لا ترى في يوسف إلا رجلاً لديه القدرة على تحقيق رغبتها هذه وإشباع حاجتها ولا تملك إمرأة العزيز بصيرة نافذة قادرة على تجاوز هذه الحسيات في يوسف وكشف الكائن النوراني فيه، والطاقة الروحية المتفجرة في كيانه.. والتي زادت سلوكه فضلاً وفضيلة.

لقد اختلطت لديها عناصر شخصيته وحجبت عنها كل ملامحها النورانية و لم يبد أمامها منه إلا أنه رجل يملك أن يشبع غريزتها فقط.

لذلك فإن الفشل والإحباط اللذين أصابا امرأة العزيز لم يكن سببها إلا أنه نبي ورسول معصوم من الله عز وجل بحيث لا يقع مطلقا في هذه الرذيلة التي أصبحت بالنسبة له مستحيلا من المستحيلات حيث أن الواجب في حقه العصمة. وهي في الوقت نفسه حلمها الذي تعلق استقرارها النفسي عليه ويمكننا بعد ذلك أن نفهم الأية التي تضمنت إعترافها للنسوة اللاتي احتججن عليها بعد أن دبرت واقعة تحديها لهن بإخراج يوسف عليهن عندما قطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا..إن هذا إلا ملك كريم. قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ● قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [سورة يوسف: ٣١- ٣٢].

وهناك أمر ثالث:

يتعلق بسيد القصر فهو موزع النفس بين حبه لزوجته وحرصه على سلامه عرضها وهو يحب يوسف عليه السلام حباً ملك عليه قلبه ويعتقد في طهارته وطيب خلقه وحسن طبعه وهو دائماً يرى فيه الإشراقة التي تنبئ عن حقيقة يوسف وإنتماءاته الروحية ويصر على أنه سيرى فيه صدق حسه وثاقب نظره.

وهناك أمر رابع:

يتعلق بالظروف التى وقعت فيها الجريمة وهى انفراد سيدة القصر بيوسف فى حجرتها وتعتيم هذه المرأة للرؤية والذى دبرته بإحكام. وإذن لابد من معجزة تتحقق لكى تظهر براءة هذا النبى الكريم وتوضح أمام الناس صدق نبوته ورسالته وتثبت لعزيز مصر أن إحساسه الذى انطبع فى قلبه منذ الوهلة الأولى التى رأى فيها يوسف كان صادقا كل الصدق.. وأنه قد آن الأوان ليتأكد أنه ينتمى إلى بيت من بيوت الله عز وجل.. بيوت الدعوة إليه... بيوت النبوة الرسالة.

والله قادر على تقديم دليل يحقق كهربائية تجبر الناس على احترام يوسف عليه السلام واصله الطاهر ونبعه الصافى ومقومات شخصيته الرائعة وكان هذا الدليل كامنا فى نطق الطفل الذى تكلم. وعندما تكلم لا يقول كلاماً عادياً يتصور صدوره من الطفل مثل طلب الطعام أو نطق اسم أبيه أو أمه.

إنما ينطق بكلمات الحكمة تتفجر على لسانه وتبهر الناس بأضواء العدل الإلهى والقدرة الربانية والعلم القدسى فقال:

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٢٦- ٢٧]. إن المعجزة فى هذا الوقت بالذات كانت مطلوبة يحتاج إليها كل من نبى الله يوسف عليه السلام والعزيز أما يوسف فإنه فى حاجة إليها لتظهر براءته من الخنى والخيانة..

وأيضا فى حاجة إليها لتأييده فى إدعائه النبوة والرسالة.. وهذا شغله الشاغل بقية عمره وهذا شأن المعجزة مع النبيين والمرسلين إذ ما هى المعجزة؟؟

إنها عمل خارق — يجريه الله سبحانه وتعالى على خلاف القوانين ليتحدى به الناس تأييداً للنبى الذى أرسله لهم.

فعندما يستفتح يوسف عليه السلام مباشرة دعوته إلى الله وتتزامن هذه الواقعة المعجزة مع بلاغه للناس فإن هذا يشد إليه المشاهدين للمعجزة ويحملهم على التفكير فى السير معه على الطريق الذى يدعو إليه.

وأما العزيز فإنه كان فى حاجة إلى هذه المعجزة لإثبات سلامة وجهة نظره فى يوسف عليه السلام. هذه الفراسة صدقت فى يوسف وأثبتت الأيام صدقها.

وقال عنها سيدنا عبد الله بن مسعود.

"أشد الناس فراسة ثلاثة..

- العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته: أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا.

- والمرأة عندما رأت موسى: فقالت:

يا أبت استأجره.

- وأبو بكر حين استخلف عمر (الفخر الرازى تفسيره الكبير).

ثم إن هذه المعجزة قد منحت العزيز جرعة إيمانية غزيرة تؤكد علاقته بيوسف الذى أبقت على صورته الوضيئة فى قلب العزيز.

بيان آخر:

وليس لنا أن نرفض أن يكون المتكلم بهذا الكلام طفلاً بعد أن رأينا فى كتاب الله عز وجل من معجزات النبيين والمرسلين التى أجراها الله على أيديهم ونذكر منها على سبيل المثال ما يخدم قضيتنا:

١- النملة التى نطقت لسيدنا سليمان عليه السلام

﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة النمل: ١٨-١٩].

٢- الهدهد يكلم نبى الله سليمان عليه السلام

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة النمل: ٢٠- ٢٣].

٣- الموتى تكلموا لسيدنا عيسى عليه السلام

قال الله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة فى الآية ١١٠

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

٤- ومن معجزات سيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم التي وردت في الصحاح من كتب الحديث والسنة وأن نطقت له الجمادات مثل جذع النخلة الذى كان يخطب عليه وعلى كل حال لابأس أن نسرد بعض هذه المعجزات:

١- حديث الظبية: انظر ص٢٩٥ ج٨ الزوائد:

قالت أم سلمة: كان رسول الله ﷺ فى الصحراء فإذا مناد يناديه يا رسول الله فالتفت فلم ير أحداً ثم إلتفت فإذا ظبية موثوقة فقالت أدن مني يا رسول الله فدنا منها فقال:

ما حاجتك؟ فقالت: إن لى خشفين (ظبيين صغيرين) فى هذا الجبل فحلنى حتى إذهب فأرضعهما ثم أرجع إليك قال: وتفعلين؟ قالت عذبنى الله عذاب العشار(المكاس) إن لم أفعل فأطلقها فذهبت فأرضعت خشفيها ثم رجعت فأوثقها وانتبه الأعرابى فقال: ألك حاجة يا رسول الله؟ قال: نعم تطلق هذه فأطلقها فخرجت تعدو وهى تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله (أخرجه الطبرانى وأخرج نحو أبو نعيم والبيهقى فى الدلائل من عدة طرق يقوى بعضها بعضا).

ب- الحصى سبح فى سيدنا رسول الله ﷺ :

حديث أبى ذر رضى الله عنه قال:

فتناول النبى ﷺ سبع حصيات أو تسع حصيات فسبحن فى يده حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل (المرجع السابق).

ج- قال جابر بن سمرة:

قال رسول الله ﷺ :

إن بمكة حجراً كان يسلم على ليالى بعثت إنى لاعرفه الأن أخرجه مسلم والترمذى وصححه.

د — وأما واقعة حنين جذع النخلة الذى كان يخطب فوقه فى المسجد فقد جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض أنه حديث متواتر أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال كان جذع يقوم إليه النبى ﷺ فلما وضع له منبر سمعنا للجذع صوتا مثل أصوات العشار حتى نزل النبى ﷺ فوضع يده عليه فسكت.

هـ — وأما ذراع الشاه المسمومة التى نطقت لسيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم فأن خبرها روى كالآتى:-

روى أبو سعيد الخدرى أن يهودية أهدت إلى رسول الله شاه سميطا. فلما بسط القوم أيديهم قال رسول الله ﷺ أمسكوا فإن عضوا من أعضائها يخبرنى أنها مسمومة فأرس إلى صاحبتها:

اسممت طعامك هذا؟ قالت نعم

قال: وما حملك على هذا؟

قالت: أردت أن كنت كاذبا أرحت الناس منك، وإن كنت صادقا علمت أن الله تعالى سيطلعك عليه فبسط يده وقال: كلوا باسم الله فأكلنا وذكرنا اسم الله فلم يضر أحداً منا " أخرجه البزار بسند رجال ثقات" (انظر ص ٢٩٥ ج٨ الزوائد وما جاء فى الشاه المسمومة).

هذه جمادات وحيوانات تكلمت مع الأنبياء والمرسلين وهؤلاء موتى كلموا سيدنا عيسى عليه السلام...

وهذه الأشياء التى تكلمت مع سيدنا رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وسلم.

فينبغى إلا تتعجب إذا كان الشاهد الذى شهد لصالح سيدنا يوسف فى هذه القضية طفلاً فى مهده فإن الله على كل شئ قدير.

وأن أقوى الدلائل على أن المتكلم بهذه الشهادة طفل فى مهده قائم فى نفس السورة فى الآية ٣٥ التى تقول." ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين".

والآيات جمع آية.. والآية هى المعجزة.

إذن فقد حدثت معجزات:

وأول معجزة فى هذا المقام تقرع آذان القوم هى أن يدلى بهذه الشهادة طفل لا يظن بمثله هذا النضج والرشد اذ تخرج الحكمة من فمه فتنقذ القوم جميعهم من ويلات هذا الموقف العصيب فتنقذ يوسف عليه السلام من هذه الوصمة.. وتنقذ العزيز من حالك الظنون بيوسف وتنقذ المرأة المتآمرة من الهلاك...

ثم ألم يتكلم الطفل الوليد شاهد دريد ببراءته؟ وهو فى المهد؟ ومن هو دريد؟ إنه عابد من عباد بنى اسرائيل... وتكلم الطفل الوليد فى حقه كرامة... وهو غير المعصوم من الخطأ.. فلماذا نستبعد..أن ينطق الطفل لنبى من أنبياء الله..ليدفع بشهادته عار الخيانة عن وجه يوسف وأوساخ الرذيلة عن ثوبه؟!!!

ربّما يقول قائل: وكيف نسلم بوجود الطفل فى هذه الساعة؟ أن بنت خالة سيدة القصر كانت تعيش معها فى القصر لخدمتها.. وكانت قد ولدت هذا الطفل منذ أيام فكانت تجد لذة فى وجوده فى حجرتها واعدت له سريرا بها.. وهى عندما هيأت الحجرة للقاء الآثم المزعوم بينها وبين فتاها... وأحكمت التدبير مستهدفة ألا يراها أحد... لم تعبأ بهذا الطفل لأنه فى حضورها لا يعى شيئا ولا يتكلم... ودائما تجد المجرم يترك وراءه ما يدل على ارتكابه الجريمة دون أن يدرى.

وأراد الله أن يفاجأها... بدليل لا يخطر على بال... فكانت المعجزة... شهادة الطفل الوليد... سلسل من نور للحقيقة الوهاجة، وكشف لأضواء الحق الخلابة... تسطع على القوم من فم الطفل منبثقة من قلبه الفضّى الرطيب مؤشرات قدسية وتوجيهات علوية... تقدم الحق والعدل واضحين كالشمس فى وضوح النهار... وتسكب الضياء على البشرية وتمنحهم بما وهبها الله واستودعها من أضواء النهار... " إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين● وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين" وتدهش عندما نرى فريقاً كبيراً من المفسرين من السلف والخلف يصر على أن الشاهد هو أحد أقارب امرأة العزيز وكان حكيماً متواجداً فى القصر مع العزيز ولم يكن طفلاً وليدا فى المهد.

ويعلق الإمام الفخر الرازى رحمه الله على حجج القائلين بذلك بأن هذا هو المعتمد. لكنى أخالف هذا الرأى الذى أخذ به هذا الإمام الجليل ومن سبقه أو لحقه من العلماء وسندى فى ذلك ما يأتى:

أولاً: النص القرآني في ذاته:

أن الآية القرآنية تقول:

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٢٦- ٢٧].

فتعبير القرآن الكريم بقوله وشهد شاهد.. هذا التعبير يفيد أن الذى قال هذه العبارة" شهد" أى رأى بعينيه وسمع بأذنيه وقائع هذا الذى حدث بين سيدنا يوسف وامرأة العزيز.

إن المجلس كان مجلس تحقيق يقضى فيه العزيز ويختصم فيه سيدنا يوسف وامرأة العزيز كل منهما الآخر والشهادة هنا هى الفيصل فى تصديق كل منهما أو تكذيبه فيما يدعى... فالشاهد هنا يسمى بشاهد الرؤية...

كما يدل عليه السياق القرآنى نفسه..

والشهادة بهذه الصفة ليست ثابته لهذا الحكيم الذى يتحدثون عنه من أقرباء امرأة العزيز إذ أنه بالقطع لم يكن موجودا فى مخدع العزيز حيث وقعت الواقعة. فإن القرآن أخبر عما لجأت إليه امرأة العزيز من استحكامات تضمن لها إتمام جريمتها وهى آمنة على نفسها.

" وغلقت الأبواب وقالت هيت لك" أى أنها شدّدت فى إغلاق الأبواب.. وأرخت الستائر وأمنت تماما من كل شئ تحذره...

ولا يمكن أن تسمع شهادة من شخص لم ير و لم يسمع وإذن فالشهادة تعتمد على المشاهدة التى تعنى السمع والرؤية وهما بالنسبة لهذا الحكيم المدعى مفقودتان.

ثانيا:- الطفل:

إذا سلمنا بوجود الحكيم المدعى وجوده من جانب كثير من المفسرين وأنه إذن له بالكلام لكان وجوده هنا بصفته محكما وكان تعبير القرآن دالا على ذلك.

ومن هنا فإن الشاهد الذى توفرت له صفة الشهادة كان موجودا بمخدع العزيز يسمع ويرى ويكون هذا الطفل الذى لم تعبأ امرأة العزيز بوجوده لفقدانه النطق والوعى فى حسبانها...

وما جرى من تكلّمه إنما كان مفاجأة لها ولمجلس القضاء وعلى رأسه عزيز مصر.. ومن حضر هذا المجلس من غير هؤلاء.

وينطوى تكلم الطفل على المعجزة التى ينتظرها الموقف فى ذاته تضع الحق فى نصابه.. وتعطى يوسف حقه باعتباره نبيا ورسولاً.. والله يؤيد بنصره من يشاء

الاجماع:

يجمع العلماء من المسلمين والفقهاء والمفسرين على أن سيدنا يوسف بن يعقوب عليهما السلام نبى من الأنبياء ورسول من الرسل. وبذلك يظهر بجلاء أن يوسف نبى ورسول أتاه الله حكما وعلما وكلفه برسالة فبلغها والشاهد على ذلك أنه قام بتبليغ الدعوة فى السجن وتشهد بذلك الآيات البينات من [سورة يوسف:٣٦-٤٠].

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۞ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ۞ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

وأن المعجزة المؤثرة التى اختص بها سيدنا يوسف عليه السلام ليؤيده بها هى قدرته على تأويل الرؤيا... ذلك أن الكهنة من المصريين كانوا قد برعوا فى هذا المضمار وأظهروا فيه نبوغا علق بهم قلوب المصريين ولا سيما الحكام.. فأتى الله عبده ورسوله حكماً وعلماً وعلمه من تأويل الأحاديث ما جعله يتفوق عليهم... بالسبق فى هذا العلم...

وقد ظهر هذا التفوق.. والإعجاز عندما رأى الملك فيما يرى النائم سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخرى يابسات.

فعجز الكهنة عن تأويل الرؤيا وقالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

وعندما تصدى يوسف لتفسير الرؤيا قال الحكمة والعلم ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ۞ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۞ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾ [سورة يوسف: ٤٣- ٤٩].

فأعجب الملك به..وأخذ بحكمته وعلمه وولّاه خزائن الأرض.. وأصبح عزيز مصر.. ولا غرور فهو الحفيظ العليم..

والآن وبعد أن ثبت لنا بما لايدع مجالاً للشك أن يوسف بن يعقوب بن أسحق بن إبراهيم المذكور فى سورة يوسف والذى راودته امرأة العزيز عن نفسه إنما هو نبى ورسول فإنه يثبت لنا أول صرح تقوم عليه براءته وهو أنه معصوم من الخطأ والخطايا وتستحيل فى حقه المعصية لأنه مطهّر من أسبابها ولا يملك مقوماتها وبالتالى فإنه لا يستطيع ممارستها والعصمة واجبة فى حق الأنبياء..

وهذا جزء من عقيدة المسلم.. ذلك أن النبى إمام وقدوة فى قومه لا ينبغى أن تقع أعين مجتمع الدعوة منه على ما يتنافى مع دعوته إلى الله وإلى الفضيلة ولذلك فإن الله قد حبس جوارح الأنبياء عن كل فعل يغضبه حتى لا تهتز صورهم أمام الجماهير التى يدعوها إلى طريق الله والصراط المستقيم.. ولو جاز أن يقع النبى فى ذنب أو معصية فإنه يفقد مصداقيته فى الدعوة إلى الله وينفر منه الناس وينفضون من حوله.

وفى حياه الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم سيدنا وسيدهم وإمامنا وإمامهم محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين حيث كان معصوماً عن أى عمل ينال من قدره مهما كان الواقع فيه غالبية المجتمع دليل الصدق فيما ندعيه.

ألم يحدثنا هو ﷺ أنه ذهب ليسمع مزمارا فى عرس من أعراس العرب فضرب الله على أذنيه فنام حتى الصباح وبذلك حيل بينه وبين السماع لأنه لا يليق بمقام النبوة.

وهنا فى هذه الواقعة التى ينسبها بعض الناس إلى يوسف عليه السلام وهى أنه تهيأ فعلا لمقارفة الذنب مع امرأة العزيز وهذا مستحيل لعصمته.

لقد روى الإمام البخارى عن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أنه قال:

"إن الله قد كتب على كل ابن آدم حظه من الزنا أدركه ذلك لا محالة.

فالعين تزنى وزناها النظر

والأذن تزنى وزناه السمع

والأنف يزنى وزناه الشم

واليد تزنى وزناها اللمس

والرجل تزنى وزناها السعى

والفرج يصدق ذلك ويكذبه.

وفى ضوء هذا الحديث لو سلمنا بأقوال وردت كلها فى كتب أهل الكتاب وإن كان البعض من علماء المسلمين أخذ بها.

أقول لو سلمنا بذلك لكان نبى الله يوسف قد وقع فى عدة معاصى، وارتكب عدة ذنوب بتعدد جوراحه ما عدا الفرج.. وكل ذلك مستحيل فى حقه لأنه نبى معصوم...

وعلى ذلك فقد اتضحت براءة نبى الله يوسف بإثبات نبوته التى تكون العصمة من الخطايا أولى ثمراتها الحلوة والتى يتحلى بها عليه الصلاة والسلام.

شهادات بّرأت يوسف عليه السلام.

شهادات برأت يوسف عليه السلام:-

امرأة العزيز نفسها فى ثلاثة مشاهد:

الغريب أن امرأة العزيز قد تخبطت فى أقوالها وفى روايتها للواقعة بطريقة أظهرت براءة يوسف وطهارة نفسه.

فبينما هى تحاول التنصل من هذا الذنب وهو إلصاق التهمة ليوسف وهو برئ منها بين يدى العزيز وتقول له" ما جزاء ما أراد بأهلك سوءا؟... الآية إذا بها هى فى مشهد آخر تعلن للنسوة بعد أن شاع الخبر فى المدينة ودبرت لقاء يجمعهن عندها: ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٣٢].

إذن يوسف لم يقترب من تحقيق رغبتها بل استعصم.

المشهد الثالث والأخير:

عندما طلب يوسف إعادة التحقيق بين يدى الملك والذى تقص نبأه هذه الآيات من سورة يوسف.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۞ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۞ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۞ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة يوسف: ٥٠-٥٣]. هذه شهادة امرأة العزيز بعفة نبى الله يوسف وبطهارة نفسه.

الله خير الشاهدين:

إن الله سبحانه وتعالى يشهد بذاته على براءة يوسف وذلك بذكر اسمه فى القرآن الكريم مقترنا بكل الفضائل وأوصاف إذا توفرت واحدة منها فى شخص لسمت به إلى أعلى مكان.

إنظر إلى القرآن تجد أن الله سبحانه وتعالى يباهي ملكه وملكوته بما منح ليوسف من الصفات النبيلة: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ

نجزي المحسنين * وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون * ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [سورة يوسف: ٢٢- ٢٤].

﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ [سورة يوسف: ٥٦].

هذا الثناء العظيم الذى يغدقه الله على نبيه يوسف عليه السلام، هل كان يستحقه لو كان ثوبه ملوثا بهذه الجريمة الشنعاء...

إن الله سبحانه وتعالى أضفى على هذا النبى من الحمد والثناء ما يجعل الناظر إليه.. يسعد بأنه ينظر إلى رجل من رجال الله.. أكرمه وحفظه ورعاه...

شهادة النسوة:

المشهد الأول:

تقص نبأه الآيات من ٣٠- ٣٤ سورة يوسف

﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ .

المشهد الثاني:

تقص نبأه الآيتان ٥٠- ٥١ سورة يوسف

﴿ وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم * قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

هذه شهادة النسوة بعفة هذا النبى أيضا وطهارته والآن وقد أصبحت بـــراءة يوسف قدوة للشباب المسلم فى كل عصر وفى كل مكان نؤيد هذه الحجة بمـا ورد فى العلم من قوانين.

إن العلم الحديث ليعلو ويسمو إذ تجد حقائقه مكانها بجوار حقـــائق القـــرن تحبوها بأنوارها وتنضح فيها من روحها.. وتثبت معها أن شعلة العقـــل تســـتمد نورها من نور الله عز وجل..

والعلم الحديث يقدم لنا حقيقة علمية تشد من أزرنا وتقوى من أدلتنا فى هـذا المضمار. وإننا نطالع أضواء هذه الحقائق العلمية فى كتابين مـــن كتـــب اســـتاذنا العلامة الدكتور محمد عثمان نجاتى هما:" القرآن وعلم النفس" و" الحديث النبـــوى وعلم النفس" يقول أستاذنا فى كتابه" القرآن وعلم النفس" طبعة الشـــروق ســـنة ١٩٨٥ ص ٢١٣ :

" إن فى طبيعة تكوّن الإنسان إذن، استعداد لفعل كل مـــن الشـــر والخـــير استعداد لاتباع أهوائه وشهواته البدنية، والإستغراق فى الإستمتاع بملذاته الحســـية ورغباته الدنيوية. واستعداداً للتسامى إلى افق الفضيلة والتقوى والمثـــل الإنســـانية العليا. والعمل الصالح، وما يحققه ذلك من سكينة نفسية وسعادة روحيـــة. ومـــن الطبيعى أن تتضمن طبيعة الإنسان وقوع الصراع بين الخير والشر، بـــين الفضيلـــة والرذيلة، بين طاعة الله ومعصيته. وإن الإختيار الحقيقى للإنسان فى هذه الحياة هـــو ما تتجه إليه إرادته وما يقع عليه إختياره. هل سيختار طريق الخير أم طريق الشر.؟

وحينما يختار الإنسان الملذات الدنيوية، وينساق وراءه أهوائه وشهواته وينسى ربه واليوم الآخر إنما يصبح فى معيشته أشبه بالحيوان بل أضل لأنه لم يستخدم عقله الذى ميزه الله تعالى به عن الحيوان.

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ● أَمْ تَحْسَـــبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [سورة الفرقان: ٤٣- ٤٤].

والإنسان الذى يعيش هذا النوع من المعيشة يكون غير نـــاضج الشـــخصية ويكون أشبه بالطفل الذى لا يهمه إلا إشباع حاجاته ورغباته و لم تقو إرادته بعـد،

ولم يتعلم بعد كيف يتحكم فى أهوائه وشهواته فينساق وراء إشباعها ويصبح خاضعا لتوجيه النفس الأمارة بالسوء.

وحينما يبلغ الإنسان مرتبة أعلى من الكمال الإنسانى يبدأ ضميره فى الإستيقاظ، فيستنكر ضعف إرادته وانقياده لأهوائه وشهواته وملذات الحياة الدنيوية مما يوقعه فى الخطيئة والمعصية فيشعر بالذنب ويلوم نفسه على ما فرط منها، ويتجه إلى الله تعالى مستغفراً تائباً فإنه يصبح فى هذه الحالة تحت تأثير النفس اللوامة. وإذا أخلص الإنسان بعد ذلك فى توبته، وأخلص فى تقربه لله تعالى بالعبادات والأعمال الصالحة والإبتعاد عن كل ما يغضب الله، وتحكم تحكماً كاملا فى أهوائه وشهواته وقام بتوجيهها إلى الإشباع بالطريقة التى حددها الشرع فقط. فحقق بذلك التوازن التام بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية فإنه يصل إلى أعلى مرتبة من الكمال الإنسانى . وهى المرتبة التى تكون فيها نفس الإنسان فى حالة اطمئنان وسكينة، وينطبق عليه وصف النفس المطمئنة.

(انتهى كلام أستاذنا الدكتور محمد عثمان نجاتى)

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [سورة الفجر: ٢٧- ٣٠].

هذه هى مدارج النفس فى العلم الحديث كما قرأها هذا العالم الجليل.

ومما لا شك فيه أن الإنسان العادى يمكن أن يتسامى على شهواته وغرائزه بحيث تصل شخصيته إلى أرقى مستوى من الكمال الإنسانى فيرتفع عن الدنايا ويرف فوق الترابية ولا يأتى من الأفعال إلا أنفعها وأرقاها ولا يمارس من الأمور إلا أعلاها.. وهكذا إذا افتقدناه فبحثنا عنه فلا نجده إلا فى القمة..مثلا أعلى وقدوة حسنة.

فما بالك بنبى من أنبياء الله قد ولد وعلو الهمة معه وسمو الأخلاق جوهرة... ومعالى الأمور صفته والسمو الروحى جوهره.

إن يوسف عليه السلام برئ مما أرادت امرأة العزيز أن تلصقه به.

وهو إذ قرر الحق من مراودتها له عن نفسه واستعصامه وتأبيه عن ذلك كان من الصادقين.

المبحث الثالث

دلائل البـــراءة وسلامة موقف العزيز

أدلة براءة يوسف عليه السلام:

أولا: يوسف نبي ورسول:

أما أنه نبى ورسول فهذا ثابت فى القرآن الكريم فى قوله سبحانه وتعــــالى فى سورة غافر على لسان مؤمن مصر الذى كان يكتم إيمانه عن فرعـــون. ﴿ **وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ** ﴾ [سورة غافر: ٣٤].

وقال أيضاً فى سورة يوسف على لسان يعقوب عليه الســـلام:﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [سورة يوسف: ٦].

وتمام النعمة هو النبوة والرسالة:

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام ذاكرا مشهداً مـــن موكـــب الأنبيـــاء والمرسلين ويوسف يتألق بينهم، ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ● وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ● وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ● وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ● وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ● ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ● أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ● أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [سورة الأنعام: ٨٣- ٩٠].

إذن فغن سيدنا يوسف عليه السلام يتألق جبينه نبياً ورســـولاً وســـط هـــذا الموكب الرائع من الأنبياء والمرسلين الذين أمر الله سبحانه نبينا الكريم سيدنا محمـــد

صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أن يقتدى بهداهم..بعد أن أوضح لـه ولنا أهم أولئك الذين آتاهم الكتاب والحكم والنبوة... وأنه اجتباهم وهداهـم إلى طراط مستقيم.

ثانيا: السنة المطهرة:

١- ما ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال" قيل يا رسـول الله من أكرم الناس؟ قال أتقاهم قالوا يا رسول الله ليس عن هذا نسـألك: قـال: فيوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله قالوا: ليس عن هذا نسـألك (قال فعن تعاون العرب تسألونى خيارهم فى الجاهليـة خيـارهم فى الإسـلام إذا فقهوا..وقد قال الإمام النووى فى شرحه:

" وقد جمع يوسف ﷺ مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسـب. وكونه نبياً ابن ثلاث أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله ﷺ . وانضم إليه شرف علم الرؤيا، وتمكنه فيه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة، وحياطته للرعية، وعموم نفعه إيامهم وشفقته عليهم، وإنقاذه إياهم من تلك السيئة والله أعلم.

إنتهى كلام الإمام النووى (صحيح مسلم بشرح النووى طبعة دار الشعب).

٢- قال الحافظ أبو بكر البيهقى عن أبى سعيد الخدرى: عن النبى صلـى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فى شأن ليلة الإسراء

" ثم صعدنا إلى السماء الثانية فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله عز وجل قـد فضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب قلت يا جبريل مـن هذا قال: هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه فسلمت عليـه فـرد علـى... الحديث.

البـراءة

ظهرت براءة النبى يوسف عليه السلام بعد أن قرعـت آذان القـوم وعلـى رآسهم العزيز كلمات الطفل الرضيع فى مهده وجلجلت فى الآفاق، ونفـذت إلى الأعماق فطهرت نفس عزيز مصر من سحب القلق السوداء التى هدرت ضياء الثقة فى يوسف نطق حكماً يدين امرأة العزيز ويبرئ ساحة يوسف:

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ● يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٢٨- ٢٩].

لم يكن لهذه الكلمات أن تخرج مجلجلة من فم عزيز مصر إلا أن تكون رد فعل للكلمات المجلجلة التى خرجت بنفس القوة من فم الطفل الوليد فى مهده..أعلن هذا الحكم الحقيقة كاملة ناصعة.. وبدت فى الأفق صورتها تسطع منها الأضواء كأنها ملاك العدل.

أن ما حدث ليس إلا ثمرة من ثمرات كيد النساء المرّة.. وليس يوسف أو مثل يوسف من يتوقع منه الخنى والخيانة وإن العزيز لا ينتظر من يوسف إلا أن يكون إماما هادياً ونبيا مرسلاً يأخذ بيد التائهين فى الظلمات لينقلهم إلى واديه الخصيب الذى تضيؤه شمس الهدى... وتحتشد فيه دوحات الخير والجمال.. والحق والهدى على طريقه المضئ الذى هو الصراط المستقيم.

لذلك فإنه قد ناشد يوسف أن يعرض عما حدث لأن الإعراض عن هذا الجرم من أخلاق الصالحين.

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [سورة الفرقان: ٦٣].

وأما امرأة العزيز فقد خصها بتحذير يعكس ما فى نفسه من نبل وما فى طبعه من لين وحلم وأدب ورحمة" استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين" إنه رفق تميز به الأمير وظهرت أضواؤه فى أقواله وأفعاله، وأسدل الأمير الستار على هذه المأساة المروعة راضيا بهذه النهاية التى خرج بها وقد حافظ على كل شئ يحبه.

حافظ على يوسف عليه السلام الذى أحبه حباً شديداً بعد أن قرأ فى قلبه كل صفحة الخير الذى نقشه الله عليه وظهرت على صفحة وجهه علاماته... واطمأن إليه وتوسم فيه الفضيلة حتى اختاره ولدا...

وحافظ على زوجته التى أحبها... وغفر لها هذه الزلة وأفسح لها فى صدره الطيب وقلبه الواسع الكبير وحافظ على سمته ووقاره وسمعته فى مجتمعه بعد أن احتوى الأزمة حتى لا تتسرب إشاعة من ثقب الأبواب فتنتشر فى المدينة... فتنلل

من صورة زوجته... التي هي عرضه... فيعلو غبارها مرآه نفسه ويظهرها هـــذا الغبار على وجهه.

قلنا أن هذا التصرف من الأمير كان حكيما وأن سلوكه كان نبيلا... علـــى خلاف ما ورد فى كتاب فى ظلال القرآن للأستاذ الجليل المغفور له الشهيد ســـيد قطب عليه رحمة الله:

قال فى ص ١٩٨٣ المجلد السادس طبعة "دار الشروق" بالحرف الواحد: تبـــين له حسب الشهادة المبينة على منطق الواقع أنها هى التى راودت، وهى التى دبـــرت الإتهام، وهنا تبدو لنا صورة من " الطبقة الراقية" فى الجاهلية قبـــل آلاف الســـنين وكأنها هى اليوم شاخصة. رخاوه فى مواجهة الفضائح الحبيسة، وميل إلى كتمانهـــا عن المجتمع، وهذا هو المهم كله قال: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم" يوســـف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين".

هكذا إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم..فهى اللباقة فى مواجهـــة الحـــادث الذى يثير الدم فى العروق والتلطف فى مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كلـــه.. فيما يشبه الثناء فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها: إن كيدكن عظيم! فهو دلالـــة فى حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم والتفاتـــه إلى يوسف البرئ.

" يوسف أعرض عن هذا!!

فأهمله ولا تعره إهتماماً ولا تتحدث به. وهذا هـــو المـــهم. محافظـــة علـــى الظواهر.

وعظة إلى المرأة التى راودت فتاها عن نفسه وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيـق قميصه " واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين".

إنها الطبقة الأرستقراطية. من رجال الحاشية فى كل جاهلية: قريب من قريب.

ويسدل الستار على المشهد وما فيه. وقد صور السياق تلك اللحظـــة بكـــل ملابساتها وانفعالاتها ولكن دون أن ينشئ منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجـــاهرة، ولا مستنقعاً للوصل الجنسى المقبوح.

و لم يحل السيد بين المرأة وفتاها، ومضت الأمور فى طريقها. فـــهكذا تمضـــى الآمور فى القصور.

والغريب أن ما ردده المغفور له الأستاذ سيد قطب نجد له نظيرا من قول لأحد السلف الصالح وهو أبو بكر الأصم الذى أسند إليه الإمام الفخر الرازى فى تفسيره قوله إن ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى معها بالإستغفار.

وإنى أخالف الشيخين الجليلين فى هذا الرأى للأسباب التى ذكرهما آنفا من حرص العزيز على يوسف الذى ملأ حبه وإجلاله وتوقيره قلبه وعلى زوجته التى أحبها وهلى مركزه الوظيفى ومكانته الإجتماعية وسمعته وكرامته وكأن الأمر لا يعدو نزوة طائشة لم تثمر جريمة الزنا... لأنها خابت فى تحقيق ما أرادت...

وللأسباب الآتية:

أولا: إن هذه الآيات نصوص قرآنية وأن قراءة القرآن لا تتم بالعقل فقط وإنما ينبغى أن تكون قراءة القرآن بالقلب والروح مع العقل والفطنة.

فالقلب كان وعاء التلقى الذى تلقى القرآن الكريم وحيا من الله نزل به جبريل الأمين عليه السلام على قلب سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم: قال سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين ● نزل به الروح الأمين ● على قلبك لتكون من المنذرين ● بلسان عربي مبين**﴾ [سورة الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

وإن القلب هو أداة التبصير والإستيعاب، وتشرب المعانى القدسية، وتعاطى الحقائق القرآنية، والمنح الفوقية، ذلك أن رحيق القرآن متفرد بمزاياه.. متميز فى عطاياه.. متعال فى أنواره... متقدس فى أسراره.. ولا وعاء يسع كل ذلك.. ويتدبر فيه، ويتغذى به مثل القلب.

﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ [سورة محمد: ٢٤].

وأما الروح فهى التى ينعشها القرآن ويغذيها.. يطعمها ويسقيها، ويداويها ويشفيها ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا**﴾ [سورة الإسراء: ٨٢]. ويخترق بها السموات العلى، إلى المحل الأعلى... فترى من آيات ربها الكبرى.. وتتناول بها الأسرار العليا... ثم تظل ترقى... وترقى... حتى تمثل بين يدى العلى الأعلى.. فتسمع وترى... وإذا بالنداء الأسمى... ﴿**إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى**﴾ [سورة طه:

١٢]. فتطرب الروح وتحيا ويطوى لها الدرج فترقى فتصدع للأمر الأسمى. ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾ [سورة طه: ١٤].

وكيف لا والقرآن نفسه روح:

﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الأِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ** ﴾ [سورة الشورى: ٥٢- ٥٣]. ثم إن القرآن نور: والنور الإلهي وعاؤه القلب ومهبطه الروح.

قال سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

والذى أخذ منه العلماء وخرجوه عليه ما وسعتى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن".

وعلى ذلك فيجب على من يتلو القرآن أو يقرؤه... أو يحاول تفسير آية من آياته ألا يقتصر على إستعماله العقل فقط وإنما يستحضر معه القلب والروح... ومن ثم فإن المفسر للقرآن لابد أن يخضع تجربته، ومذهبه وحقائقه التى تزود بها.. وفكرة.. عقله وكيانه... كله للقرآن ذاته، وللنص القرآنى.. لابد أن يخضع النص القرآنى لفكره ورؤيته المجردة... وتجربته الإنسانية.

وإنى أرى أن المرحوم الشهيد سيد قطب قد تغالى فى النعى على العزيز وموقفه النبيل من يوسف عليه السلام ومن امرأته بدعوى أن هذا الموقف ملوث بما يشتهر به الطبقة الراقية أو الأرستقراطية من التستر على الفضائح الجنسية. وفى هذا لِيّ للنص تطويعاً له ليشهد بما هو مستقر عنده.

فالشهيد سيد قطب متأثر بنزعة اشتراكية صحبته فترة طويلة من عمره الثقافى وتاب منها وخلعها عند باب العودة إلى الله..

إنه كان اشتراكى النزعة وألف حزبا سياسياً أسماه حزب الفلاح.. كان ذلك قبل توبته النصوح التى دخل من بابها إلى بستان الإسلام الفيّاح.

وفى ضوء ذلك فإنه قد لوى النص القرآنى ليستجيب لهذه النزعة... مع أن السياق القرآنى البديع.. ونظمه الرائق... لا يقولان ذلك..

فالعزيز بعد أن تبين له الحق الصراح فى هذه القضية التزام بهذا الحق... ونطق ببراءة يوسف عليه السلام وخطأ امرأته...

وأعطى بذلك لهذا الجرم حجمه الحقيقى وحبسه فى قوقعتـــــه الصغـــيرة... وأطفأ الفتنة بذكاء قلب لا يعرف الأرستقراطية أو الطبقة الراقية وما بينهما وبـــين الطبقة الكادحة من خلاف أيديولوجى(!!!!) وإنما يصدر عن الفطرة بل أن هـــذا الموقف كشف عما هو بداخل هذا الإنسان من نفس بسيطة... غير معقــدة ... ومن تقدير لأهل العلم والحكم من أمثال يوسف عليه السلام... ومن إســـــتعداد عظيم للصفح يدفئ به زوجته التى أصابها الخزى فى داخلها ببرد قارس...

إن العزيز فى هذا التصرف يؤكد فى النفس وفى القلب ما يشعه السياق القرآنى دليلا على صفاء روحه، ونقاء قلبه وسلامة فطرته.. التى رأت بعينها نجابة يوســـف عليه السلام وأصالته.. وإشراقة الإيمان التى أودعها الله ســـــبحانه وتعـــالى فيـــه.. واستعداد روحه الفذة لتلقى النبوة وتحفزه للقيام بأعبائها... وتحمـــل مســـئولياتها عندما قال لزوجته" أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا".

ويؤكد السياق القرآنى أيضا أنه رجل كبير يطوى بين جنبيه قلبا كبـــيرا... تسامى عن الواقعة... ومنح زوجته الصفح الجميل وهذا شأن كبـــار الرجـــال.. الذين يملكون قدرا عظيما من الخلق العالى ولديهم رصيد كبير من المروءة والهمـــة العالية.

وإذن لم يكن هذا التعزيز يصدر عن إباحية يأخذ بها أو أرستقراطية ينتمـــى إليها... أنه فى هذا التصرف كان إنسانا بكل ما تحويه الكلمة من معنى.

ومعنى هذا أن كل إنسان قد اكتملت شخصيته واتسع افقه، وتأصلت تجربته، ونضج عقله وسما فكره.. وصفا قلبه، وصقلت النعمة خلقه.. كان سيتصرف هـــذا التصرف.. فهو إنسان: متحضر... فالمصريون فى الزمن الذى عاش فيه هذا العزيز قد بلغوا فى الحضارة والمدينة شأوا بعيدا كما قرر الشهيد سيد قطب فى كتابـــه فى ظلال القرآن ص ١٩٨٤ من المجلد الرابع حيث قال بالحرف الواحد: فأعدت لهـــن هذا المتكأ.. وآتت كل واحدة منهن سكينا تستعملها فى الطعام... ويؤخذ مـــن هذا أن الحضارة المادية فى مصر كانت قد بلغت شأوا بعيدا ؟!

وأن الحضارة المادية تمتد إلى النفس... والروح والكيان الإنسانى... فإنها تؤثر على سلوكه... وتصقل تجربته وتمده بذخيرة يستطيع بها أن يحكم على الأشياء... وأن يعطى لوقائع الحياة حجمها الصحيح... باعتبارها حصاد القيم والخير.

ثانيا: واستنادا إلى ما ورد آنفاً فإن موقف العزيز يكون موقفاً حضارياً يعكس أخلاق الإنسان الحضارية التى تتميز بالهدوء... والصبر... وسعة الأفق... والثقة بالنفس.. ووضاءة القلب...

فالأخلاق الإنسانية تصقلها الحضارة.. بعكس ما تفعله البداوة من حدة فى الطبع.. وضيق فى الأفق.. وتسرع فى الحكم على الأشياء...!!.

هذا ما قاله السياق القرآنى فى بساطة عميقة:

يوسف أعرض عن هذا!!! فأنت يا يوسف حباك الله بأخلاق رفيعة.. وهمة عاليه ومواهب سامية.. واشراقات راقية ومثلك لا يعرف (هذا!!!) ولا يعرفه "هذا" فهما لا يلتقيان أبدا....

وإن الإشارة فى هذا الموقف تغنى عن العبارة أنه ترك ليوسف عليه السلام ولكل أصحاب الضمائر المؤمنة أن يعرفوا المقصود باسم الإشارة" هذا" وقد أجلس العزيز يوسف عليه السلام بهذه العبارة على عرشه الأخلاقى العالى... ولفت نظره عن هذه السقطة التى سقطتها زوجته... ثم إلتفت إلى هذه الزوجة وقال الكلمات التى إحتوت كل معانى العدل والرحمة... والشفقة والمعروف، وحسن المعاملة وإسداء النصيحة... وإحترام علاقة الزوجية والوفاء لها.

وقال رسول الله ﷺ :" إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على سواه. وروى الإمام مسلم أيضا عن السيدة عائشة أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم قال" إن الرفق لا يكون فى شئ إلا زانه... ولا يترع من شئ إلا شانه".

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

" إن الله عز وجل ليعطى على الرفق مالا يعطى على العنف، وإذا أحب عبدا أعطاه الرفق وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا" رواه الطبرانى ورواته ثقات... رواه مسلم وأبو داود مختصرا: من يحرم الرفق يحرم الخير...

هذه هى الأخلاق الكريمة التى تحلى بها هذا العزيز عندما أراد أن ينهى المشكلة العائلية فى قصره... باعتباره رب بيت معتدل...

إهتدى إليها الرجل بفطرته ونستطيع أن نقول إنه كان ملهماً فى سلوكه هذا وفى حكمه هذا يبين من الفقرة التالية.

كان ملهما:

يشدد الأستاذ سيد قطب النكير على العزيز عندما رأى أن يدخل يوسف السجن حتى حين وذلك فى قوله تعالى على الآية الكريمة:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [سورة يوسف: ٣٥].

قال الأستاذ سيد قطب:

وهكذا جو القصور..وجو الحكم المطلق، وجو الأوساط الأرستقراطية.. وجو الجاهلية!! فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف، وبعد أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة حفل استقبال تعرض عليهن فتاها... الذى شغفها حبا... ثم تعلن لهن أنها به مفتونة حقاً ويفتتن هن به.. ويغرينه بما يلجأ إلى ربه ليغيثه منه وينقذه، والمرأة تعلن فى مجتمع النساء — دون حياء — أنه إما أن يفعل ما يؤمر به، وإما أن يلقى السجن الصغار. فيختار السجن على ما يؤمر به!

بعد هذا كله بدا لهم أن يسجنوه.. انتهى كلام أستاذنا الشيخ سيد قطب رحمه الله.

ولست أدرى ما سبب هذه الحملة على العزيز والطبقة التى ينتمى إليها!!

إن المرحوم سيد قطب يخص هذا العزيز بسياطه اللاذعة على هذا التصرف الذى جاء منه جميلا لأنه قضاء الله عز وجل... وتصاريفه يجريها على خواص أحبابه من عباده الله حفظاً لهم، وإعلاء لذكرهم.

إن الذى يقرأ بقلبه وروحه وعقله سياق القرآن الكريم فى سرده الجميل لوقائع حياة هذا النبى يؤمن بأن كل هذه الوقائع من صنع الله عز وجل وما هى إلا علامات على طريق يوسف الذى نهايته السلطة والسلطان والملك والعظمة... والصولة والصولجان من فضل الله...

وكل هذا كان مرآة تتلألأ عليها أنوار النبوة واشرقات الرسالة.. فيتمكن يوسف فى الأرض.. وينشر دعوة الله.. فى أمن وأمان... ويفتح لعقول أهل مصر

بابا على ملكوت الله فيهتفون بأنشودة التوحيد لا إله إلا الله... فتنخلع منها قلوب الكهان... وتفرق منها أفئدة الجبابرة من ذوى السلطان...

نعم... نقرأ معا بعض هذه الوقائع: فمنذ طفولته وصباه يعانى من حقد إخوته نار شواظها أحرق بدنه..وألم نفسه... وانتهى به إلى الجب والتقطه بعض السيارة وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين.

وهنا أراد الله أن يكون الذى اشتراه من مصر بالذات وهو ليس شخصاً عادياً.. إنما هو عزيز مصر (!!!) ويلهم الله العزيز فيهتدى بحاسه الفطرة التى لا تكذب.. وهى الفراسة إلى مواطن العظمة.. وتأخذ بعينية أضواء البشرى بما هو مودع فى إهابه من كنوز الخلق الجميل (!!!) فيهتف بزوجته اكرمى مثواه.. وهنا تتحقق لهذا النبى الراحة... وينعم فيها بشئ من راحة البال هو فى حاجة إليها.. وفى بستان القصر تتفتح أزهار الحقيقة على فروع يوسف... ويبدأ بدوره مراحل التمام ويؤتى حكما وعلما فيلتبس أمره على سيدة القصر... فتشتاقه وترغبه فتبدأ محنة يلفحه لهيبها ويدفعه إلى حبّ آخر فيتشبث بباب الله... ويفضل بلاء السجن على بلاء القصر وفتنة النساء فيدعو الله فيستجيب له الدعاء.

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [سورة يوسف: ٣٣- ٣٥].

إنها دعوة نبى... ودعوة النبى مستجابة... ومن الذى حرك قلبه ليدعو هذه الدعوة التى كشفت لنا خبيئة نفسه أنه يفضل السجن على حياة القصر؟ من الذى قذف فى قلبه اليقين بأن خلاصه من هذه المتاعب.. هو السجن؟

من الذى استجاب الدعاء؟

إن الذى فعل كل ذلك إنما هو الله سبحانه وتعالى لأن كل هذه التصاريف من شئون الأنبياء والله عز وجل هو الذى يتولى هذه الشئون لأن الله يتولى الأنبياء **﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾** [سورة الأعراف: ١٩٦].

وأذن فالعزيز بإدخال يوسف السـجن لم يكـن إلا أداة تنفيـذ لمـراد الله ومشيئته... حتى يجد يوسف عليه السلام فى جو السجن... فرصة الدعـوة إلى الله... التى سنحت له فعلا.. ومارس هذه الدعوة... بتمكين من الله.. وبصـيرة من لدنه وهو العزيز الحكيم... وينصر من يشاء بما يشاء.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ● مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف: ٣٩- ٤٠].

وبذلك أضاء فى سماء مصر بدر التوحيد، ونقشت على قلوب أبنائها وبناتهـا بحروف النور الإلهى السرمدى لا إله إلا الله... وأول من تلقاها من يوسف عليـه السلام... هؤلاء البسطاء من الناس... فتحررت نفوسهم واستضاءت قلوبهـم، وعمرت أفئدتهم.. وصلح لهم أمر دينهم ودنياهم بعد أن ذاقوا فى لذة ومتعة حلاوة الإيمان.

وهتف يوسف عليه السلام... شاكرا نعمه الله فى عمق الليل البهيم ليضـئ ظلمة الليل بدفقات النور وسلسل الضياء من فمه الشريف:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [سورة يوسف: ١٠١].

نبى الله ورسوله
سيدنا عيسى
عليه الصلاة والسلام

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

[سورة آل عمران : ٤٥، ٤٦]

البداية

تبدأ قصة نبى الله سيدنا عيسى عليه السلام من بداية قصة أمه البتول سيدة نساء العالمين فى عصرها السيدة مريم بنت عمران رضى الله عنها ويحسن أن نترك المجال للقرآن الكريم ليقص علينا النبأ بإعجازه المعهود وسلسبيله الدفاق الحلو المذاق... لنعرف.. ونسعد فعلا بتحقق هذه المعرفة: فإلى سورة آل عمران أيها القارئ الكريم وفيها تصافح أعيننا جواهر الحق المبين لألاءة كنور الشمس... هادئة كضوآ القمر نافذة فى أعماق الأعماق كأنها أشعة الليزر... عاطرة كالروح والريحان.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ● ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ● إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ● فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ● فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة آل عمران: ٣٣- ٣٧].

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره المرادُ بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام.

ويذكر ابن كثير أن محمد بن اسحق بن يسار رحمه الله قال فى نسب عمران هذا" هو عمران بن باش بن ميشا ابن حزفيا بن ابراهيم بن عزايا بن ناوش بن اجو بن هو ابن نازم بن فقاسط بن إيشا بن إياذ بن رخيقهم بن سلمان بن داود عليهما السلام فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم ولقد اثبت هذا الإمام ابن كثير فى تفسيره لسورة الأنعام مع أن سيدنا عيسى منسوب إلى أمه سيدتنا مريم عليها السلام وخرج على ذلك قاعدة شرعية أنه إذا وصى الرجل لذريته أو وقف على ذريته أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم فإنه يختص بذلك بنوه وبنو بنيه فقط.

وإذا فقصه سيدنا عيسى عليه السلام تبدأ من هنا... من أفق أماني جدته لأمه امرأة عمران وهى حنة بنت ناقور رأت طيرا يطعم فرخه فاشتهت الولد فدعت الله عز وجل أن يمنحها الولد فحملت مريم عليها السلام. فلما علمت ذلك من تحركها فى أحشائها بادرت وهى بنت الصالحين من عباد الله بنذرها لله... فنذرتها على أنها ذكر فهذا الخاطر فطرى فى النفس ولعل ذلك صادر من أن الرجل سبق المرأة فى الوجود يوم خلق الله أدم أولاً ثم خلق له من نفسه حواء...

وكانت تتمنى حملها ذكرا يقوى على خدمة بيت المقدس الذى ورثت تقديسه من أبائها وأحبت أن تقدم لهذا البيت فتى جلدا يرعاه ويسهر على سدانته وخدمته وعبادة الله فيه... فنذرته وهو أمل لم يبرح خيالها ولم يخرج من دائرة الغيب.. لله رب العالمين نذرته خالصا لله وما أجملها من كلمة رددتها بين يدى الله ضارعة" نذرت لك ما فى بطنى محرراً" فكلمة "محرراً" حوت كل معانى التجرد لله... والخلاص من كل شئ دخيل يكدر هذا النقاء أو ينال من هذا الصفاء...!!!

فلمّا وضعتها وظهرت لها حقيقتها أنها أنثى دعت الله عز وجل بهذه العبارة" رب إنى وضعتها أنثى" دعاء تطلب به عفو الله ورحمته إذ أنه" ليس الذكر كالأنثى" فإن الذكر يستكمل مواصفات الخدمة وقدرة العبادة وجلد سدانة البيت المقدس.

وقولنا أنها دعت الله ندحض به وهم من يزعم أنها بذلك أنها بذلك تخبر الله بما وضعت فإن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق ما فى بطنها وصوره وهو أعلم به منها... وهو خلقها أنثى بعلمه وحكمته التى اقتضاها سبحانه ولدت سيدتنا مريم عليها السلام وقد أحاطها الله بعناية خاصة وحباها بحماية منه ووقاية خلصتها تماماً من كل شائبة وحفظت لها فطرتها المتألقة، ولم يستطع الشيطان أن يمسها من قريب أو بعيد... لما استجاب دعاء أمها" وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم".

لقد استودعت أبنتها جناب الله ذى القوة المتين، فحققت بذلك لها ضمان العصمة.. والحفظ الإلهى من كيد كل شياطين الإنس والجن... ومن كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

وقد زف الله بشراه هذه فى قرآنه العظيم فى قوله" فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا" ... نعم أيتها السيدة الفاضلة مريم... سلام عليك.. عندما تقبلك الله سبحانه بهذا القبول الحسن... حظيت بمعية الله عز وجل وحفظه ورعايته فحفظ بك نبيه ورسوله عيسى عليه السلام... وعندما أنبتك النبات الحسن... فإنما كان ذلك لتطيب ثمرتك الطيبة الرائحة الحلوة الطعم... عذبه المذاق معجزة الله فى الخلق... وكلمته الخالدة عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين..

إنك الآن أيتها السيدة الجليلة فى ولاية الله يتولاك ويشبع كل حاجتك من طعام وشراب وهو بذاته يسوق إليك الطعام والشراب تحمله الملائكة لخدمتك... أجلالا لهذا الدور الذى سبق فى علم الله أنك التى بعونه ستقومين به... ويعطى من خلالك للإنسانية الحائرة المعذبة فى ذلك العصر إنسانا يلقى كلمات الثلج والبرد يطفئ بها تنور عذابها... لتحيى على أسماء الله الحسنى وتفيق على صوت هذا النبى يبعث فيها أنوار الفجر الصادق... يضئ الكون بأضواء التوحيد.. فتظهر ملائكة الرحمن تلتئم صفوفهم مع صفوف المصلين لله من عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين... وتختفى أسراب خفافيش الظلام ظلام الشرك والكفر والضلال.

إعداد مريم أماً لعيسى عليه السلام

إن الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين... فهو يربّهم ويربيهم...

وهو سبحانه وتعالى أعلم بشئون خلقه.

وهو الذى جمع فى الوالديه كل أسباب الحياة الإنسانية.

فجعل فى الأب القوة وفى الأم الحنان.

جعل فى الأب ملكات السعى على الرزق... من صبر وجلد

وجعل فى الأم معين الرحمة والشفقة.

مستكملاً كل أسباب الحياة.

وآدم أب لحواء... وليس لحواء أم

فجمع الله فى أبوة آدم صفات الأبوة والأمومة مجتمعة لتنعم حواء بقوة أدم وحزمه أبا وبرحمته وحنانه وعطفه أما... وفى هذه المرة جمع الله فى شخص سيدتنا

مريم صبر الأب وجلده وحنان الأم ورحمتها... لتكتمل شخصية سيدنا عيسى عليه السلام.. ذلك النبى العظيم...

مرحلة الإعداد:

فى الآيات من ٤٢ إلى ٥١ من سورة آل عمران يبين الله تبارك وتعالى كيف تم إعداد مريم جسمانيا وعصبيا ونفسيا لأداء دورها العظيم خير أداء... والقيام بمهمتها المسندة إليها خير قيام ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ [سورة آل عمران: ٤٢- ٥٠].

النمو الجسمانى

إن الله تبارك وتعالى هو خالق الناس وهو الذى جعل حياة هؤلاء الناس فى صورة من صورها تنضج بغذائين: غذاء الجسد وغذاء الروح وكلاهما ضرورة للجسم لا يمكن له الحياة بغيرهما أو بغير واحد منهما..

وقد ضمن الله غذاء الجسد والروح لمريم عليها السلام حتى لا تبذل فى ذلك جهد يشغلها عن المهمة التى التى يعدها لها.

فالنسبة لغذاء الجسد:

كانت الملائكة تحمل لها الطعام طرياً شهياً من رزق الله الذى لا ينفذ.

لقد أجمع علماء التفسير ومنهم الإمام ابن كثير أن فاكهة الصيف كانت تـأتى مريم فى الشتاء وأن فاكهة الشتاء كانت تأتيها فى الصيف" وقد نوه الإمام ابن كثير إلى هذا هو أوضح التفاسير لقول الله تعالى" كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا" وأحاط كلامه بعبارة سنعود إليها فيما بعد عند ذكر خبر دريد العابد. هذه العبارة هى" فيه دلالة على كرامات الأولياء" فعلا إن هذا الرزق المادى الذى ساقه الله سبحانه لأمته مريم دون أن تنشغل بأسبابه هو كرامه لها...

لقد أثار هذا الرزق دهشة نبى الله زكريا عليه السلام فسألها " أنى لك هذا... فأجابت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

لقد كفل لها هذا الرزق أمرين:

أولا: النمو الجسمانى فهى تتغذى به فينمو جسمها ويكتمل لها صباها.

ثانيا: القدرة على مواصلة عبادة الله فى محرابها والصلاة له سبحانه فى خلوتها ومجلس مناجاتها لله رب العالمين.

النمو النفسي:

أن الله تبارك وتعالى قد هيأ لأمته مريم عليها السلام الرزق الحسى والجسمانى فصفى بذلك نفسها ومنحها من لدنه دفقة حنان غسل بها قلبها ونفسها من العوائق وحقق لها قدرا عظيما من صفاء القلب وصفاء النفس وصفاء السريرة... فحجب بذلك كل ما يشغلها أو يستنفذ طاقتها الروحية التى تولاها الله بالمدد والإمداد فسمت هذه الروح وارتقت وغذاها الله سبحانه لتقوى وآوردها عز وجل موارد القوة الروحية ووالى هذه الدفقات التى جرى بها نهر وصلة عز وجل فى إهاب مريم وروحها..."يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين" فجعل الملائكة ترتاد مجلسها لتؤنسها وتزيل وحشتها وتزكى روحها وتقول لها. "يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين".

هذه الجرعات الروحية المتوالية تنسكب فى قلب وتقوى روحها المعنوية... وتصب فى فؤادها أسباب اليقين فتهدأ... وتملأ عليها السكينة كل الأفاق... إذ أنها عندما تعلم أن الله عز وجل قد أختارها وانتقاها فإنها تفرح عند ذلك وتسعد وتهنأ لذلك وتسر ذلك لأن الله لا يصطفى من عباده إلا من خلص من كل الآفلت وطهر من كل الخبائث وصفى من كل المكدرات و لم يعد فيه للشيطان نصيب

واصبح أهلا لمعيه الحق ومؤانسته، فيسبغ الله عليه من فضله ويحبوه مـــن نفحاتـــه، ويشبعه من إشراقاته فأى فضل يسمو على هذا الفضل وبأى شئ يستقر الجنـــان أن لم يستقر بهذا الفضل كله والنعيم؟!

إن موارد هذه القوة الروحية التى عبت منها مريم عبّا وأغترفت منها أغترافـــا نمى روحها وزكاها" هى القنوت لله والسجود له... والركوع مع الراكعين".

فى قوله عز من قائل

"يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين إن يد الله سبحانه وتعالى ممدودة لأمته مريم بجزيل العطاء (((والخير العميم... وذلـــك بصفـــة دائمـــة لا تتوقف... وسيّال لا ينقطع... فنظرها دائما معلّق بالله... وعلى ذلـــك فـــهى دائماً قانتة لله رب العالمين فالقنوت إذن طبعها والخشوع صفتها... والحمـــــد لله كلمتها، وسبحانه الله نشيدها والله أكبر ضربات قلبها.

وأما السجود فهو مقام القرب من الله عز وجل وفى هذا المقام تسمع مريم مـــا يسرها ويطرب روحها وترى ما يبهج بصرها وبصيرتها فتزدهر كل ورود الخـــير فى كيانها وتتهيأ روحها للنبأ العظيم...

وأما الركوع فإنه تدريب لروحها وتمرين على الخضـــوع لمـــراد الله أحكـــم الحاكمين فيترع قلبها باليقين، وتضئ جنبات نفسها بنور الله المبين، وتسرى بـــين ضلوعها كلمات رب العالمين...

إنه لم يقل لها اركعى مع الراكعات لكنه قال" أركعى مع الراكعين"

ألم أقل لك إن الله جمع فى مريم حنان الأنوثة ورحمتها وقوة الرجولة وبهـــاتين الصفتين ألحقها فى عداد أولى العزم من الرجال الراكعين والأوليـــــاء والمتقـــين ألا فلتهنأى بذلك لتسعدى يا أم عيسى عليكما السلام.

وفى هذا المجال الروحى فتح الله لمريم قلب نبيه زكريا عليه السلام يتدفق منه الفتوحات الرحمانية لمريم فتنهل من هذا العطاء ما يقوى به قوامها الروحى وتتعلم فى أفق زكريا دروس تجربته فتتهيأ روحيا لتلقى فضل الله العظيم عليها.. روح الله وكلمته عيسى عليه السلام إذ أن زكريا نبى ورسول ويعلم من الله علما غزيرا فتح الله نهره لمريم لينساب فى كيانها نورا يضئ لها وتعلمت بذلك الحكمة وفصل الخطاب.

وبهذا نضجت روحها واستوى عودها وأصبحت وقد اكتملت إنسانيتها قوة، وإيمانا.. وكمالا وجلالا، فأصبحت أهلا... لتحمل مسئوليتها التى إصطفاها الله لها.. واختارها من بنات زمانها لتؤديها.. وتنهض بأعبائها الثقال وتبعاتها الجسام.

وهذا شأن الله فالله أعلم حيث يجعل رسالته والحمد لله رب العالمين.

عيسى قادم أيها الناس.. فاخشعوا لجلال الله فيه

وبعد: لقد آن الآوان أن يظهر الحق وتعلو كلمته أن مريم قد ركز فى قلبها اليقين ففى كل يوم تطالع عملا خارقا يدل على طلاقه قدره الله الحكيم ومع كل نفس من أنفاسها تصافح يد الله المضيئة تصنع من أجلها المعجزات فتزرع فى قلبها فى قلبها شجرة اليقين.

والآن وقد أصبحت نفسها المطمئنة تملأ عليها كيانها فأصبحت على استعداد لأن تجد فى قلبها تصديقا وتجاوبا مع أى عمل يريده الله... وأى حادث يقع مهما كان غريبا على أرض الوجود ما دامت قد حققت مصدره وعرفت أنه من عند الله قادم فإنها لن تدهش لأن الله على كل شئ قدير...

ومن رحمته سبحانه وتعالى بمريم أن والاها بعطاءات خارقة غير خاضعة لقانون الأسباب فتهيأت بذلك لأن ترى ما يجرى بملكوت الله... فلا عجب ولا غرابة لما يجريه الله من أعمال، ذلك بأن الله هو الحق وأنه على كل شئ قدير...

إن مريم عليها السلام فى مجلس مناجاتها لله، وفى مصلاهـــا تصلـــى لله رب العالمين.

وبينما هى غارقة مستغرقة فى فكر يصلها بالله إذ بها ترى الملك فى صورة بشر يبشرها بولادتها لعيسى نبى الله.. فاندهشت رغم ما لديها من يقين فإنها كانت قــد اطمأنت إلى طلاقة قدره الله فى أعماله خارجها أما هذه المرة فإن العمـــل الخـــارق يأتى بدوى شديد من داخلها.... فلنمتع أرواحنا بتلاوة أنباء هـــذا الحـــدث فى القرآن نستروح بأياته فننعم بعبيره الفياح يملاء صدورنا.

هنا بين دفتى المصحف فى سورة مريم الآيات من ١٦ إلى ٣٦

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ● فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ● قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ● قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ● قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ● قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ● فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ● فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ● فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ● وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ● فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ● فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ● يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ● فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ● قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ● وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ● وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ● وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ● ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ● مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ● وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

انظر معى أيها القارئ الكريم

إن هذا النور المنبعث من حروف هذة الآيات الكريمة يرسم لنا الحقيقة الإيمانية الكبرى التي هى صميم الرسالات السماوية كلها من عهد آدم إلى سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

الميلاد:

يا نور الفجر المضئ فى جبهة نبى الله عيسى بن مريم عليهما السلام أهل على الناس بأضوائك فإنه قد أن الأوان الأفق غيمان بسحب دخان الشكوك والأوهام نفثها الشيطان فى جوف أعداء الله و أعداء الكلمة الطيبة.. التى كانت تعطر الأفاق بعطرها الفياح من فم نبى الله موسى عليه الصلاة والسلام والتى تلقاها قلبه وخالطت بشاشتها وجدانه الذى صفاه الله فى الوادى المقدس طوى عندما ناداه﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ .

ومضى بها النبى الكريم موسى عليه السلام بما وهبه الله من عزم واصرار فاستودعها قلوب أصحابه الذين سعدوا بإرشاده ونعموا بصحبته فتشربتها أفئدتهم وانتشرت مع ذرات دمائهم فأضاءت أجسادهم وعطرن أفاقهم.. وغسلت بهذه الأنوار منازلهم وقراهم... لكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة وافسدوا فى الأرض وحرفوا التوراة وحجبوا عن الناس نور الكلمة... فأظلم الأفق مرة أخرى وعميت الأنباء... واحتاج الناس إلى من يحمل فى قلبه نور التوحيد... فكان نبى الله عيسى عليه السلام.

لن ألجأ لغير القرآن الكريم لتسجيل وقائع ميلاد السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وذلك للأسباب الأتية:

أولا: إن الله بعد أن قص علينا نبأه وأوضح لنا بحكمته وإعجازه حال أمه البتول الصديقة مريم وسجل تطورات حالتها النفسية أثناء الحمل وعند الولادة... وبعد أن جعله بنفسه وهو الوليد لساعات يعرف الناس هويته ودرجته قرر سبحانه أن هذا قول الحق الذى فيه يمترون.

"ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون"

ثانيا: إن الله سبحانه فى القرآن الكريم قد حفظ لنا الحقيقة فى هذا النبأ العظيم وحماها من أعداء نبى الله عيسى عليه السلام ومن أصدقائه على السواء

حماها من نكران أعدائه... ومن مبالغة أصدقائه.. ولذلــك تــألقت هــذه الحقيقة وتقبلها العقل بقبول حسن.

ثالثا: إن القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله عز وجل الأزلى والأبــدى إذ قــال تعالى فى شأنه "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

وإلى ذلك تطمئن العقول والقلوب والأرواح إذا وردت مــورده واســتقت شراب الحقيقة وأيقنت أنه صاف رائق لاكدر فيه ولا صنعة إنسان.

وقائع الحمل والميلاد:

إن مريم رضوان الله عليها فتاه صنعها الله صناعة خاصة واسبغ عليــها مــن الصفات الجسدية والروحية ما يؤهلها لأن تحمل نبيا من أولى العزم من الرسل حــق يصدم عصرها كله صدمة كهربية تفجر فى كيانات إنسان ذلك العصر زلازل تمــور بها بحاره مورا وتسير به جباله سيرا... وتتفاعل كل طاقته من أجل تركيز الحقيقــة الخالدة الأزلية الأبدية فى الكيان الإنسانى لتسير سيالا بجوار هذه النفحة المقدســة التى رفعت قدره وأسجدت له الملائكة هذه الحقيقة الأزلية الأبدية هى وحدانيــة الله المسكوبة فى حروف لا إله إلا الله تلتئم بجوار الروح فى الكيان الإنسانى فتولــدان طاقة الفطرة الربانية موصولة بأمر الله ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [سورة الإسراء :٨٥].

فنجد الكيان الإنسانى نفسه مشغولا بسماع النداء المقدس فى داخله وفى عمق أعماقه بصوت الله عز وجل يناديه " إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصــلاة لذكرى" إن مريم قد ذهبت بعيدا عن قومها حيث حببت لها الخلوة. والخلــوة أم الصفاء النفسى، ووعاء المدد الإلهى... وفرصة الأنس... ومحل التحليات الألهيــة والإشراقات الربانية، والنفحات الرحمانية..

فى الخلوة تتاح الفرصة للروح أن تتصل بالمحل الأول فتســتقى الأنــوار... وتنهل الأسرار وترد من مورد الأبرار... وينكشف الستار فتعــرف الروح مــا لم تكن تعرف... وترى ما لم تكن ترى... وتسمع ما لم تكن تسمع... وتــأنس لخالق الأرض والسماء... فتطرب الروح ويطمئن الفؤاد ويطيب المقام.. ويــدرك العقل أن فى هذا الوادى الخير والبركات أنها تركت المدينة بقضــها وقضيضــها..

وصخبها وضوضائها وأحقادها وأضغانها... وأسواقها وحاناتها... وخطاياها... ورزاياها وأحاديثها... وهمساتها... وهمزها ولمزها.

وجاءت تنشد أفقا صفيا ووصلا من الله نديا" فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا" مكثت فى هذا المكان لا يشغلها شاغل عن عبادة الله سبحانه وتعالى ومناجاته بأحب أسمائه إليه فهى من بيت كريم، ومن أسرة خلصت لله رب العلمين ونذرت أفرادها للدعوة إلى الله.. فشغلت أسماء الله كيانها فتنكست وتبتلت.

ولا غرور فهى بنت المصطفين الأخيار، الذين رباهم الله لحسابه وعرفهم طريقه وحملهم أمانة رسالاته وأعباء دعوته فهى إذا سبحت لله تسبيحه ارتفعت بها درجات وهى التقيه النقية الطاهرة البتول... خرجت تماما من الترابية والحمأ المسنون... وارتقت فى مدارج الروح بجناحى الصبر.. والشوق لله رب العالمين فزالت عنها الترابية فاندمج منها البصر فى البصيرة... فأبصرت بعين البصيرة فرأت وتحقق لها قول ربها" فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا".

رحمة الله عز وجل بمريم تتجلى فى هذا المقام

إن الله هو الرحمن الرحيم:

وقد أراد عز وجل — ويا نعم ما أراد — أن تكون معاملته لعباده جميعا نابعة من رحمته ومعين الرحمة الإلهية شئ عظيم انظر معى إلى قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى أله وصحبه وسلم فيما رواه" البخارى" أن الله قسم الرحمة مائة جزء اختص نفسه بتسعة وتسعين جزأ وخص خلقه بجزء واحد فمن هذا الجزء تراحم الخلائق حتى لترفع الدابة رجلها خشية أن تؤذى وليدها.

فبهذه الرحمة الربانية نظر الله لأمته مريم فى هذه المرحلة من أيام عمرها... إن كيانها كله مشغول بتحقيق مراد الله منها... موظف لحمل الكلمة التى منها زلزلة هذا الوجود مخصص لخدمة المعجزة الإلهية، وهى مخلوقة من نطفة من ماء مهين، من أب طاهر وأم طاهرة، أى من أبوين خصهما الله بالأصطفاء....

ولذلك فإن الروح الأمين قد اتاها بصورة بشرية على هيئته من جنس هيئتها إذ ربما يعظم خوفها لوجاءها بصورته الملائكية التى خلقه الله عليها ويكون لذلك تأثيره الجبار على بنيتها الجسدية التى تولاها الله لها بالتغذية والإمداد. فلما ظهر لها بشراً سويا جدد خوفها منه بناحية معينة عرفت كيف تواجهها فقالت: إنى أعوذ

بالرحمن منك إن كنت تقيا" ولا شك أنها ارتاعت فصاحت فكان لصيحتـــها رد فعلها عند جبريل الذى استرد صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها وتمثل لها بها وقد تلألآ نوراً يملاء عليها الأفق بعد أن تذكر اسم الرحمن عز وجل وكان أثـر ذلـك على جبريل عليه السلام أن استقبل الأسم على حقيقته النورانية فازداد تألقها نـورا وقال "إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا".

يا إلهي: كيف يكون ذلك

" إن تجربة الحياه عندنا نحن البشر أن الطريق الذى سيسلكه الولـد ليخـرج للحياه يبدأ من نطفه الأب وينتهى إلى نطفة الأم وليس هناك طريق سواه.

وإننى عذراء لم أتزوج فالطريق فقد بالنسبة لهذا الولد نقطة البدء... وهـى الأصل فى التكوين فصاحت قائلة:" إنى يكون لى غلام و لم يمسسنى بشـر و لم أك بغيا" إن مريم تستعيد الذكريات عند بدء رحلتها مع الله سبحانه فى خلوتها الـتى جلت كيانها وأزاحت التراب عن تلك اللطيفة القدسية فى كيانها فتألق جوهرهـا وسمعت صوت ملائكة الرحمن تبشرها بهذا الغلام الذى سمعته الآن من جبريل.

فلما سمعت الروح الأمين يقول لها

كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكـان أمـراً مقضيا"

استقرت نفسها واطمأنت لا سيما وقد نقشت هذه البشـرى علـى قلبـها كلمات" غلاما زكيا" ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا.

فهى فرحت لأنها ستكون اما لغلام زكى وهو فى الوقت نفسه آيـة للنـاس يقرع بها آذان عالم ذلك اليوم ويبهر بها أبصاره ثم هو فى الوقت نفسه رحمة لأهـل زمانه... وقد أصبح ذلك حكما من أحكام الله التى لا نقـص فيـها ولا إبـرام أذعنت مريم لقضاء الله وقدره وتشربت روحها الحقيقة وسرت فى كـل ذرة مـن ذرات كيانها أنوارها و لم يعد فى هذا الكيان ثغرة ينفذ منها شك أو يدخل منـها وهم بل إمتلأت كلها بنور اليقين.

أذعن الكيان كله لقضاء الله واستجاب فى خشوع وتبتل لينفذ مشيئته ويحقق مراده.. وسخر جسد مريم لخدمة المشيئة الربانية "فحملته فانتبذت به مكانا قصياً" حملت مريم وبدأت رحلة تنفيذ مراد الله عز وجل منها ومع أول أيام الحمل بـدأت

مخاوفها على نفسها وعلى هذا الذى تطوى عليه أحشاءها فغيرت محل إقامتها من المسجد إلى مكان بعيد عن الناس فإن قربها منهم لاشك سيسبب لها المتاعب.. فهم سيلهبون ظهرها بسياط ألسنتهم المجنونة تشبع أحقادهم من الولوغ فى شرفها وسمعتها.

وبذلك سيجتمع لها نوعان من الآلام كفيلان بإجهاد هذا الجسد المشغول بتكوين هذا الحدث الجليل والكلمة العظمى التى ستصنع أضواء الفجر الجديد من نورها اللألاء.

وحبب إليها الحجاب بعد أن سمعت كلمات الشك وأسئلة الريبة يتفوه بها زميل لها فى خدمة بيت الله وهو من عباد الله الصالحين ألا وهو يوسف النجار. وبعد أن وقع الحوار بينها وبينه سؤالا حائرا منه وإجابة منها وإجابة مستقرة منها زرعت فى نفس يوسف النجار الأمن واليقين.

إلا أنها تحسبا لما يحدث من غيره من القوم اتخذت الحجاب حتى تمت أيام الحمل مكلفة لها من جسدها ودمعها وأعصابها الشئ الكثير خلال الشهور التسعة" فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا" إن المخاض عملية حيوية يقوم بها كيان المرأة وهو طلقات متوالية يعقبها خروج الجنين إلى الحياة لصبح وليدا وهو عملية صعبة تكلف المرأة الشئ الكثير... فلما أحست مريم ذلك علمت أنه قد وقع ما كانت تتوقاه وتحسب له ألف حساب فصرخت من الأعماق:

" يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا" وهذه الصرخة تمثل قمة الخضوع لله عز وجل والتسليم بقضاء الله. ذلك أن المؤمن يكلف بأمر من الأمور التى يوجبها الشارع وهو بذلك يباشر مسئولية عظمى يحاسب على الأعمال فيها الحساب العسير.

وهو راغب رغبة أكيدة فى رضا الله عز وجل ويطيب له أن ينفذ مشيئته سبحانه حتى يفوز بالقرب منه لكن الآثار التى يتكلفها تكون عظيمة وخطيرة فحبب إليه أنه يعدم ولا يصحب عطاء الذى يعطيه شئ من ملل أو كلل.

فالسيدة البتول مريم صديقة نشأت فى بيت من بيوت التقوى وعبادة الله الواحد الأحد وهى أسلمت لله أمرها واستجابت لقضائه وعندما ايقنت إن نفاذ

أمره قد جسّد فعلا فى هذا الوليد الذى أصبح فعلا حقيقة ناطقة صرخت" يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا"

ولم تكن صرختها يأسا ولاجزعا من قضاء الله وإنما هى صرخة خوف إلا تسعفها ظروفها بملاقاه قومها اللقاء الجدلى الحاسم الذى يحسم الأوهام ويقضى على الشكوك داخل هؤلاء الناس.

إنها صرخة الخوف من تقصير يهدد محاولاتها لاقناع القوم بكلمة الله وقد تحاسب على هذا التقصير... إنه خوف من مبالغة الأصدقاء وشماته الأعداء.. فلما ملأها الخوف انضم إليه الحزن.

"فناداها من تحتها إلا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا لماذا يحار المفسرون فى تحديد صاحب الصوت الذى ناداها... من تحتها: ألا تحزنى..إن هذه المخاوف راودت مريم فى حالة الوضع، وغرتها هذه الأوهام وهى مشغولة له بالمخاض...

وسمعت هذه البشرى من تحتها؟ فلم يكن صاحب هذا الصوت إلا هذا الوليد الذى تريد أن تمنح ألف لسان لكل لسان ألف لغة لتعبر بها عن مجده وشرفه وعلو مترلته... أنه صوت عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.. زف نبى الله عيسى عليه السلام لامه لحظة الميلاد" قد جعل ربك تحتك سريا"

إن مريم قد ولدت نبى الله عيسى عليه السلام وهى قد عانت فى ذلك الآلام وبذلت الجهود المضنية وهى فى حاجة إلى الطعام والشراب ومن أجلها ومن أجل وليدها..

من أجلها تآكله وتتغذى به، ومن أجل وليدها يتحول إلى لبن الرضاع الدسم.. وليس هناك من حولها وهى الوحيدة الفريدة من يعد لها طعاما أو يحضر لها الشراب وأمامها نخلة عجفاء قد جفت أعوادها ونضبت فروعها وكفت عن نتاج الثمرات.

حقا إنها اطمأنت لذلك النهر الذى بشرها به وليدها عيسى عليه السلام

لكن من أين الطعام فسمعته يقول

"وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا"

لقد سخر الله النخلة لتستجيب ليدى مريم الضعيفتين بعد أن أمرها بمباشرة وظيفتها التى كانت قد نسيتها فأزهرت وأثمرت وأنضجت الثمار بقدرة الله فى لحظة من الزمان وهكذا شأن ربك إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

لقد تحقق الطعام لمريم فأكلت وأجرى الله تحتها الماء فشربت وارتوت وفى هذا لاشك راحة لها أية راحة وأمن له أى أمن، وعلى ذلك فقد قرت عينها وهدأت بالا من هذه الناحية.. لكن بقى عليها هم ثقيل هو أن تدافع عن وليدها أمام الناس وأن تتمكن من مواجهتهم بحقيقته حتى تضمن بذلك سلامه فكرتهم عنها وتمحو ظنونهم السوداء تجاهها وترد عن نفسها السهام التى يوجهونها إليها.. وهنا طالبها من تحتها بالتزام الصمت" فإنما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا" إن الله سبحانه وتعالى قد فرض الصمت على مريم فرضا وهى فى مسيس الحاجة إلى الكلام.. ذلك أن إقناع الناس بحقيقة هذا الغلام فيه براءتها من الدنس المظنون والخنى الموهوم واثبات لطهرها المعهود، وإنها فرع طيب من شجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها فى السماء

" أن الله اصطفى أدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين"

إنها بنت النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وإن صدرها الآن يفيح بعبير هؤلاء الذين انحدرت منهم من أصفياء الله وأنبيائه والمرسلين، وأن صورة أمها العظيمة ماثلة أمامها بوجهها المضئ بأنوار التقوى والورع. وأن زوج خالتها نبى الله زكريا مازال عبير تقواه يملأ عليها المكان. وأن صدرها يجيش بمعانى الجمال... جمال الطبع وحسن الخلق فى بيتهم بيت آل عمران ولن تبذل جهدا كبيرا فى تذكير الناس بهؤلاء الأمجاد واثبات أن سيرتها هى استمرار لسيرتهم وإنها ثمرة طيبة من ثمار شجرتهم لكنها تلقت الأمر:

فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا" فامتثلت للأمر الإلهى واذعنت، والتزمت الصمت وتقبلت تنفيذ هذه الفريضة على نفسها وتوكلت على الله يرد عنها شماته الأعداء وغلواء الأصدقاء ثم جاء الأمر الشديد الذى لا يطيق تنفيذه إلا الصادقون مع الله فى العهد البائعون لله أنفسهم، المسلمون لله قيادهم فى سلامة لا تعرف الإلتواء وفى همة الكلل وفى صبر لا يعرف الملل ومضت مع الله للنهاية إذ أمرها أن تأتى قومها بهذا الوليد.

إن مريم لم تقبع فى مكانها تنتظر وفود قومها ليأتوها فى مكانها بـــل بـــادرت بنفسها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ● يَا أُخْـــتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢٧- ٢٨].

إن القوم لم يتحملوا الصدمة، ذلك أنهم مروا بمرحلة ظهر الفساد فيها ولعــب الشيطان لعبته وحقق فيهم أحلامه وأمانيه، فاصبحوا وقد ضـــاعت فيـــهم القيـــم وزلزلت فيه العقيدة وهبطت فيهم الأخلاق فدانوا للشهوات وخضعوا للـــــنزوات فذل منهم العزيز وصغر فيهم الكبير، وحقر بينـــهم العظيـــم، وضـــاعت بينـــهم الحقوق.. وساد الظلام فغمت عليهم الرؤية فأصبح الباطل حقا، والحــــق بـــاطلا والزور صدقا والصدق زورا فلم يروا أمامهم تاريخ مريم وأم مريم وأبيها.. فصدقـوا شياطينهم ورموها باقبح ماترمى به فتاه واقموها بأفظع ماتتهم به الحرة — بلـــه — العابدة المتبتلة العارفة لحقوق ربها الحافظة لعرضها الصائنة لشرفها المقـــدرة لكـــرم اصلها وسمو معدنها واصالة جوهرها.. قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريـــا.. لكـــن كلمة الحق دائما تعرف طريقها فتخرج من فم المندفع بوسواس الشيطان إذ لا يفلح هذا الكيد فى إخفاء الحقيقة فأعطوها شهادة تفيد سلامه الأصل وشرف المعـــدن.. ما كان أبوك امرأ سوءا وما كانت أمك بغيا.. إنها الآن عرفت قيمة الصمت الـذى فرض عليها.

أن هذا العمل الذى تريد أن تدافع عنه لاثبات وضاءته وطهره إنما هـــو مـــن صنع الله فقط ولا دخل لها فيه وإنه كلمة الله وهو القادر وحده على دفـــع الشـــر والأشرار عنه وهو الكفيل بالقضاء على الشكوك والأوهام التى فرضـــت ظلامـــها على عقول القوم وقلوبهم فحسنا فعلت إذا أذعنت لأمر الله وامتثلـــت والـــتزمت الصمت وصبرت، وهنا نظرت إليهم نظرة الواثقة فى نفسها المؤمنة بربها وجـلش فى صدرها شعور بالثقة والطمأنينة" فأشارت إليه".

نعم أشارت إليه وهى واثقة فى أن الله الذى خلقه كفيل أن ينطقه بـــالحق... أوليس هو الذى ناداها من تحتها منذ قليل مرددا على سمعها بشرى أنها قد جعـــل ربها تحتها سريا؟

تعجب القوم من إشارتها لطفل مولود ساعات وليست لديه ملكـــة الفكـــر والكلام فقالوا:" كيف نكلم من كان فى المهد صبيا!!؟؟؟ لكن الرد على ســـؤالهم

الذى خرج إلى معنى التعجب خرج من فم عيسى عليه السلام فقال كلمة الحق الصراح التى فيها شفاء صدور المؤمنين وخذلان الجاحدين وتمزيق حجب الشك عند الحائرين إذ نطق و **﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ● وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾** [سورة مريم: ٣٠- ٣١].

عيسى فى المهد وطبيعة الأشياء تقول أنه لا يقدر على الكلام... لكن لطف الله عز وجل به ورحمته بأمه خرقت هذه الطبيعة وعطلت هذا القانون وفعلت هذا العمل غير العادى إذ انطقه الله بفصيح اللسان وواضح البيان فقال" إنى عبد الله"... لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم!!!!

كيف نطق وهو الوليد وعمره ساعات ولا ينتظر من مثله نطق... أنه أطال التعبير واكثر من الكلمات بنفس طويل لكنه إن يجمع عناصر رسالته التى كلف بها هذه الحياة الدنيا قد وحّد الله عبده وذكر مهمته فى الكون وصفته فى معاملة أمه ثم حصاده الذى يحصده من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة وموقفه بين يدى الله رب العالمين... وقد لخص بذلك أسباب وثمرات وجوده.

لقد بر الله وعده لمريم إذ تولى بنفسه الدفاع عنها وعن وليدها إذ انطقه بلب قضية الخلق وقضية الرسول وقضية الكتب الإلهية وقضية الوحدانية وقضية الربوبية الوالدين بألفاظ قليلة حوت معانى عظيمة.

وبهذا تكون مريم قد كسبت القضية عندما نفذت أمر الله فصمتت وآوت بذلك إلى ركن شديد.

أن الله يدافع عن الذين أمنوا أن الله لا يحب كل خوان كفور **﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾** [سورة الحج: ٣٨].

إن عيسى عليه السلام بهذه الكلمات التى الهمهُ الله إيّاها فى المهد فنطق بها لم يكن يخاطب الناس فى عصره فقط أنه حسم قضية الدنيا والأخرة قضية تمتد فتغطى الدنيا ثم هى تظل على هيئتها حتى يفصل الله فيها يوم يجمع الله الرسل والناس أجمعين. يوم يقوم الناس لرب العالمين.

القضية
التوحيد

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾. [سورة مريم : ٣٠ - ٣٣]

المبحث الثالث
القضية - التوحيد

بماذا نطق نبى الله عيسى عليه السلام وهو فى المهد؟؟ إن الناس لا يعانون جهدا وهم يبحثون عن الكلمات التى قالها هذا النبى وهو وليد يوم أو أيام ذلك لأن القرآن الكريم قد سجل لنا هذه الكلمات فى علم الله، وعندما نقرؤها أو نسمعها فإننا نحس وكأننا شهود نسمع ونرى ونلمس بأنفسنا حركات شفتيه الطاهرتين فتتحدد دموع الخشية على وجنات الخاشعين لله، وتسمو أرواح المؤمنين إلى درجات عاليه فى ملكوت الله العظيم تتلذذ بنعمة القرب ونفحة الوصل ودفقة اليقين تعطر قلوبهم وتسكن خواطرهم، وأن بصائر المؤمنين تمتلئ بجلال وإجلال لهذا الطفل المتكلم بكلام نظيره ما يمنح لشيوخ الأنبياء والمرسلين وكيف لا.. ولسانه ينطق بكلمات الحكمة الخالدة والحقيقة الأزلية الأبدية التى سجدت لها الملائكة وخشعت وامتلأت جنبات الحظيرة القدسية أنوارا وابتهجت ورصعت بلألاءها سيقان العرش العظيم وزينت وأزهرت بها سدرة المنتهى وأينعت وصفت بها انهار الجنان وترقرقت.. وتعطرت بها أنفاس النبيين، وهتف بها المرسلون واستقبلها صدور الأولياء والمتقين فسهرت عليها الليل أفئدتهم وسجد له جباههم وعلت بها أصواتهم... إن الله ربى وربكم فاعبدوه".. ماذا قال نبى الله عيسى؟

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [سورة مريم: ٣٠- ٣٣].

هذه كلمات نبى عيسى عليه السلام وهى كما ترى تشمل إقرار بالعبودية لله وفى الوقت ذاته إقرارا لله سبحانه بالربوبية. هذه العبودية التى شهد بها سيدنا عيسى عليه السلام طفلا صغيرا واستوعبت وجدانه واستولت على كيانه كله مشاعر نبيلة على قلبه، وعطرا فياحا فى فمه الطاهر، ونورا وضاءً على جبينه الوضاح هى حقيقة كل عباد الله من أنبياء ومرسلين، وأولياء ومتقين.

يستوى فى هذه العبودية جميع خلق الله من إنس وجن وملائكة فالكل عبد الله، مربوب له، مغمور بفضله والآئه، مدين له بالوجود يسبح بحمده ويخشع لجلاله ويستجيب لأمره ويلتمس منه متطلبات الحياه ثم إن هذه الكلمات تنطوى على إقراره بنعم الله عليه خاصة، وبها سرد هذه النعم سرد الواعى البصير، العارف لقدرها، المؤمن بشرفها المقدر لسموها حيث آتاه الكتاب. وجعله نبيا وجعله مباركا... أى أنه ملحوظ بعناية الله مشمول برعايته محبوب لديه مفضل عنده أينما كان وأينما حلت قدماه... ثم إن الله أهله لشكر النعمة إذا أوصاه بالصلاة والزكاة.

ثم هو جعل الوفاء خلقه إذ وفقه لبر والدته ونزهه عن التجبر... إذ أن التجبر فى ذاته شقاء. إن هذه الكلمات القليلة فصلت فى قضايا كبرى؟ فما هى القضايا:

القضية الأولى:

قضية أمه السيدة البتول مريم بنت عمران

إن مريم منذ ورة من قبل أمها لخدمة بيت الله، منذورة لله، ومحوطة بحصانة الحى القيوم ورعاية الله ذى القوى المتين... فالشيطان قد يئس منها وخاب أمله فيها، و لم يعد له فيها نصيب، وهى قائمة لله وراكعة وساجدة، قد طهرتها العبادة، وغسلت كيانها التسابيح والتراتيل وكل هذا سما بروحها، وأعلى قدرها وجعلها فوق الشبهات، وبمنأى عن الظنون والأوهام. لكن مفاجأتها لقومها بهذا الوليد إصابتهم بدوار فلم يستطيعوا استيعاب هذا النبأ العظيم بعقولهم المحدودة، وفكرهم الضيق، إذ أن ما فجأتهم به مخالف لطبيعة الأشياء والأسباب.

إن المفاجأة: عطلت قواهم الفكرية و لم تبق منهم إلا رعونة فجرت على ألسنتهم لهيب الإتهام بعبارات الشك والريبة التى تنبئ عن أنهم نسوا نسكها وعبادتها وطهر نشأتها وسلامة جوهرها وصفاء معدنها فرموها بالزنا ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٢٧] ثم صرحوا وقالوا ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٢٨] واستقبلت السيدة الفاضلة كلماتهم بهدوء ولو تتزلزل و لم ترتجف ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٢٩] .. قال إنى عبد الله.. وفى نطق الوليد ذاته تكمن

المعجزة.. إذ لم يعهد الناس فى حياقم العادية أن طفلا وليد أيام يتكلم ويتخطى مراحل من عمره فأيقظتهم هذه الصدمة وراجعوا أنفسهم فى رأيهم فى السيدة الجليلة مريم بنت عمران.

وكانت هذه المعجزة دليل براءة أمه.. شهادة أتت من عند الله رب العالمين الذى تولى بذاته الدفاع عن أمته التى خضعت له وخشعت ونفذت مشيئته وصبرت... مكافأة لها على هذا العمل الذى قامت به منفذة لإرادة الله . فأنطق وليدها خارقا بذلك العادات والقوانين والأسباب والمسببات وجاء فى القرآن الكريم وجعلها مضرب الأمثال فقال عز من قائل فى أخر سورة التحريم ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [سورة التحريم: ١٢].

هنيئا لك أيتها السيدة الجليلة مريم ولتسعدى بهذا الذى حظيت به من قبل رب العالمين فقد ميزك عن أمهات الأنبياء بكثير من المزايا علمنا إياها سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله دعاء أبيك إبراهيم وبشرى نجلك الكريم عيسى عليهما السلام. فقال:

حرسك الله بعينه فتاه، وقربك منه وأولاك بالنعم الجزيلة، وكلفك بحمل هذا النبى وأن تكونى له الأب والأم معا بعد أن سكب فيك حنان الأمومة ونعيم الأبوة فشملت وليدك بفيض هذا الحنان وسقيته من صدرك الرحمة وحفظته بقوة الأب وصلابة عوده صابرة محتسبة مصرة على توصيله بر الأمان وتمكينه من أن يقول كلمته التى كلفه الله بها بإصرار المجاهدين وقوة أولى العزم من الرسل، فتبوأت بذلك منزلة عالية يا سيدة نساء العالمين. وفازت بصحبة ملائكة الله المقربين.

القضية الكبرى:

فصل نبى الله عيسى بكلماته المعدودة التى تحرك بها لسانه فى قضية كبرى تتعلق بطبيعته وديانته اللتين تناولتهما دعوة أصدقائه كالتالى:-

أولا: طبيعة المسيح

أن الذين أمنوا بنبى الله عيسى فريقان:

فريق عاصره وأخذ عنه وتلقى منه فتشرب عقيدة التوحيد وهؤلاء لم يغالوا فى طبيعته بل رأوه على حقيقته عبدا لله ورسولا من الصالحين، فلما أراد سيدنا عيسى

أن يميز اتباعه الحقيقيين عن غيرهم نادى فى الناس كما حدثنا القرآن الكريم فى (سورة آل عمران) ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [سورة آل عمران: ٥٢] وفى (سورة الصف) ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾ [سورة الصف: ١٤].

هذا هو موقف من عاصر نبى الله عيسى من المؤمنين تنحصر عقيدهم فيه فى أنه بشر رسول وكلمة من الله ألقاها إلى مريم وأنه دعاهم فأمنوا به وصدقوه.

الفريق الثانى:

وهم ورثوا هذا الدين فلم يحفظوه بل وغلوا وعلوا فى طبيعة المسيح وهم مجموعات متعددة انبهروا بشخصيته الفذة ونشأته الأستثنائية وأعماله المعجزة ذلك لأن الله قد أجرى على يديه كثيرا من المعجزات متنوعة وردت فى القرآن الكريم مرة فى (سورة المائدة) ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۞ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۞ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ [سورة المائدة: ١١٠- ١١٥].

وهناك معجزة أخرى ورد ذكرها فى سورة آل عمـــران **﴿ وأنبئكـــم بمـــا تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾** [ســورة آل عمران: ٤٩].

ومن النصوص القرآنية يتضح أن المعجزات التى أجراها الله على يـــدى نبيــه ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام هى خمس بيانها كالآتى:"ـ

الأولى:

أنه يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فيكون طيرا بأذن الله.

الثانية:

إحياؤه عليه السلام الموتى بأذن الله جلت قدرته

الثالثة:

إبراؤه عليه السلام الأكمه[١] والأبرص[٢] وهما مرضان يتعذر علـــى الطــب تحقيق الشفاء منهما.

الرابعة:

إنزال المائدة من السماء بطلب الحواريين لتطمئن قلوبهم.

الخامسة:

هى أخبار بما يغيب عن حواسه العادية مما يدخرون ويأكلون فى بيوتهم وهــذه باقية له من عهد سيدنا يوسف عليه السلام.

هذه المعجزات جعلت اتباع نبى الله عيسى عليه السلام ينبهرون به إلى حـــد الفتنة فافتتنوا به وغالوا فى الإعتقاد فيه مغالاه أخرجته من طبيعته البشرية إلى مــــا اعتقدوه من الألوهية نسبوها إليه أو أنه ابن الله أو أنه والله واحد.. إلخ وهو مـــن هذا كله برئ وانقسموا فى هذا إلى عدة فرق:

الأولى:

هذه الفرقة ترى أن المسيح ذو طبيعة واحدة قد امتزج فيها عنصر الإله بعنصر الإنسان وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت الناسوت وقد شـــرح الإمام محمد أبو زهرة عليه رحمة الله هذا المذهب فى كتابه" محاضرات فى النصرانيــة"

---

(١) الذى يولد أعمى.

(٢) البرص: مرض جلدى يشوه جسد المريض.

ويسعدنا أن نترك المجال للمغفور له صاحب الفضيلة أستاذنا الأكبر الإمام محمد أبو زهرة ليجلو لنا هذه القضية الكبرى من القضايا التى فصل فيها السيد المسيح عليه السلام بكلماته القليلة وننقل ما جاء فى كتاب ها الإمام (محاضرات فى النصرانية هذا الكتاب الذى يعد وثيقة علمية خطيرة فى تاريخ المسيحية ومراحلها. جاء فى هذا الكتاب من ص ١١٦ إلى ص ١٢٠ خاصاً بهذه القضية الكبرى نلخصه فيما يأتى:

جاء فى كتاب سوسنة سليمان لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصرانى أن "عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس، وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى هى الإيمان بإله واحد آب واحد، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد، يسوع الأبن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله.

إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب فى الجوهر، الذى به كان كل شئ والذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء تأنس، وصلب عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقبر، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على ما فى الكتب، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب وسيأتى بمجد ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه والإيمان بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب الذى هو مع الأبن يسجد له، ويمجد الناطق بالأنبياء" ويستخلص أستاذنا الأكبر الإمام أبو زهرة رضى الله عنه أن أساس هذه العقيدة يقوم على ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: التثليث والإيمان بثلاثة.

العنصر الثانى: صلب المسيح فداء عن الخليقة وقيامه من قبره ورفعه.

العنصر الثالث: أنه يدين الأحياء والأموات.

وقد أورد أستاذنا تفسير الدكتور يوسف فى تاريخ الكتاب المقدس

تفسيرا لذلك أن طبيعة الله عبارة عن ثلاثة اقانيم متساوية" الله الآب، والله الأبن، والله الروح القدس. فإلى الآب ينتمى الخلق بواسطة الأبن. وإلى الأبن الفداء وإلى الروح القدس التطهير".

والخلاصة فى ذلك هى أن عقيدة النصارى تقوم على التثليث ومن شاء الإستزادة فى الشرح فليرجع إلى كتاب محاضرات فى النصرانية لأستاذنا الأكبر الشيخ محمد أبو زهرة.

ومما سبق يتبن أن سيدنا عيسى عليه السلام قد انصف الحقيقة عندما نطق بهذه الكلمات القليلة الألفاظ الغزيرة المعانى والدلالات والتى أصبحت حجة على الناس حتى يوم القيامة ذلك أن القرآن الكريم عندما سجل كلمات هذا النبى العظيم عليه السلام كما ورد فى سورة مريم والتى نطق بها وهو فى المهد قد أوضح للناس جوهر رسالة هذا النبى وهو الدور الذى لم يشذ به عن إخوانه من الأنبياء والمرسلين و لم يأت فيه بجديد و لم يبتدع فيه رأيا ولا مذهبا ولا عقيدة جديدة فهم جميعا دعوا إلى عبادة الله الواحد الأحد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، الذى لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد — هذا هو جوهر دعوة النبيين والمرسلين عليهم جميعا الصلوات والتسليمات من عهد آدم إلى أشرف الخلق سيدنا محمد بن عبد الله نبى الله الخاتم ورسوله الأعظم صلى الله تعالى عليه وعلى أله وصحبه وسلم.

هذه الشهادة التى سجلها القرآن الكريم لنبى الله ورسوله سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا ورسولنا سيدنا محمد الصلاة والسلام وهو طفل فى المهد هى جوهر رسالته التى بعث بها نبيا ورسولا ويبشر بها ثم هى التى ستتألق وتضئ الزمان إذا نزل إلى الأرض مرة أخرى يؤكدها ويمحو كل نقيض لها ويكذب كل ما يخالفها من عقائد ويدحضها بالنور الذى يشع منها ثم هى التى سيلقيها شهادة بين يدى الله رب العالمين يوم القيامة.

ونتناول كل مرحلة بشئ من التفصيل:

فأما أنها دعوته

فهذا ما يشهد به القرآن الكريم حيث قال الله سبحانه وتعالى فى سورة الزخرف:

﴿ وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا

صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [سورة الزخرف: ٦٣- ٦٥].

فانظر معى أيها القارئ الكريم العصمة المتجلية فى بلاغ سيدنا عيسى عليه السلام لقومه ما تلقاه من ربه عز وجل أنه يقتل جراثيم الشك فى قلوبهم، ويقضى على احتمالات الإنحراف بالعقيدة.. أنه استعمل صيغة القصر فى التعبير عن عقيدته فى استعماله الضمير الغائب (الله حاضر لا يغيب) بعد اسم الله الذى هو علم على الذات العلية وبذلك قصر الربوبية الحقة والألوهية الصادقة على الله مؤكدا بذلك بحرف التوكيد صائحاً فى قومه " إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم" فالمقطع الأول من الآية يساوى تماما لا إله إلا الله والمقطع الثانى يساوى معناها الشريف أى لا معبود بحق إلا الله هذا أيها الأخ الكريم شرف نبى الله عيسى عليه السلام يعلو به إلى أسمى المقام وعلو الدرجة وسط إخوانه من أنبياء الله والمرسلين.

هذا طهر معدنه وقوة عصمته التى عصمه الله بها والواجب فى حق الأنبياء العصمة.

ويؤكد الله سبحانه وتعالى أن جوهر رسالة نبى الله عيسى يتجلى فى توحيده والدعوة إليه وذلك فى (سورة الصف) ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الصف: ٦].

وتوضح هذه الآية الجزء الهام من جوهر رسالة سيدنا عيسى عليه السلام وهو أن يحمل للعالم بشرى بعثه رسول الإسلام ونبى أخر الزمان. سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

فكأنه مكلف من الله سبحانه وتعالى أن يبشر بمقدم النبى الخاتم والرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وأن هذه الدرة الغالية هى المكملة لعقيدة سيدنا عيسى عليه السلام التى كلف بغرسها فى قلوب قومه وهى ذات العقيدة التى كلف بها سيدنا محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وهى التى تنظمها هذه الحروف النورانية المكونة لعبارة لا

إله إلا الله محمد رسول الله!! هذه السبيكة الذهبية النورانية مسبوكة من حروف هاتين الآيتين.

الأولى من سورة الزخرف

وأن الله ربى وربكم فاعبدوه

وهى تقوم مقام لا إله إلا الله

والثانية من سورة الصف

ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد وهى تقوم مقام محمد رسول الله

وبهذا يكون سيدنا عيسى عليه السلام قد غرس فى قلوب المؤمنين به نفس عقيدة المؤمنين من أمة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وهى العقيدة التى تخلص إلى هذه الكلمات.

لا إله إلا الله محمد رسول الله

وإذن فالعقيدة التى سكبها الله فى قلب سيدنا عيسى عليه السلام هى توحيد الله عز وجل والإقرار بأن سيدنا محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم واستوعبت هذه العقيدة كيان سيدنا عيسى عليه السلام كله وسرت فى كل ذرة من دمه وأنارت جنبات فؤاده وتدفقت بها مشاعره تروى قلوب الحواريين واستطاع بذلك أن يملأها بنور هذه العقيدة فجرت بها ألسنتهم؛ آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون.

إن اعتبار التبشير بنبوة ورساله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم جزءا جوهريا من رسالة سيدنا عيسى عليه السلام أمر وارد ومستساغ يطمئن إليه عقل وقلب كل مؤمن بالله عز وجل يتقى الله ويؤمن بيوم الحساب. وإنه عندما أخبر قومه بهذا الجزء من رسالته فى قوله: ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد قد جعل لنفسه مكانا فى قلب كل مسلم بحيث أصبح اسمه يشغل قلوب المسلمين وألسنتهم وتجد عبير ذكره على لسان كل مسلم متميزا بذلك عن كثير من إخوانه الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

فرابطة الحب التى تربط بين المسلمين وبين سيدنا عيسى عليه السلام وأمه العظيمة البتول رضوان الله عليها متألقة دائما تغذيها مشارق القرآن وأنواره فى سورة مريم وأخواتها.

ومن الطبيعى أن تمتد هذه العاطفة الجياشة صلة بين المسلمين وبين اتباع سيدنا عيسى عليه السلام متفردين بها عن غيرهم من اتباع غيره من الرسل فى كلمات فاضلة من القرآن الكريم فى (سورة المائدة)﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ**﴾ [سورة المائدة: ٨٢-٨٥].

القرآن حق، ولا يقرر إلا الحق والثابت عندنا بيقين أن هذه الفئة التى حدث عنها القرآن.. هذه الفئة من اتباع سيدنا عيسى الفائزين بالحسنيين.. الحائزين للدرجتين الحاصلين على أجر الله مرتين.

هذه الفئة موجودة فى الناس إلى يوم القيامة إذا أن الله يقول الحق وهو يهدى السبيل.. لله حبات الدموع فى مآقيهم تعكس أنوار الحق عز وجل متجددة على مآقيهم تخضل بها لحاهم وتنبت على أرض الوجود أشجار الإيمان بالله والخشوع للرحمن ولله دفقات المشاعر العاطرة بالحب الفياض تجرى بها أنها رحيق المودة بينهم وبين المسلمين اتباع سيدنا محمد بن عبد الله نبى الله الأعظم ورسوله الخاتم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم إلى يوم الدين.

هذا الجزء من رسالة سيدنا عيسى عليه السلام أنشأ الرابطة الأبدية بين سيدنا عيسى عليه السلام وحوارييه المؤمنين من جهة وبين المسلمين اتباع سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وصحبه وسلم من جهة أخرى فالجميع إخوان على طريق الله سبحانه وتعالى تعانقت أرواحهم وائتلفت قلوبهم فسبحوا بحمد الله رب العالمين.

هذه الحقائق جهاد سيدنا عيسى عليه السلام فى ثلاث مراحل... مرحلتان فى هذه الدنيا... وقبل أن تنتهى هذه الحياه.. ومرحلة بعد نهاية الدنيا.. وعند

البعث والنشور يوم يقوم الناس لرب العالمين فى الآخرة. فأمـــا المرحلـة الأولى فى الحياة الدنيا فقد طاب الحديث عنها فى الصفحات السابقة.

وأما جهاده فى المرحلة الثانية فى الدنيا فهو ما نتحدث عنه الآن.

سيدنا عيسى يترل للأرض قبل قيام الساعة

وضع المصدران الرئيسان للإسلام وهما القرآن والسنة فى وجدان كل مســـلم حقيقة عودة سيدنا عيسى عليه السلام للأرض ليستأنف جهاده فى إرساء قواعـــد العقيدة التى من اجلها آتاه الكتاب وجعله نبيا، وهى لا إله إلا الله محمد رســول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم." أن الله هو ربى وربكم فاعبدو هــذا صراط مستقيم ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد".. ويترل إلى الأرض يزيح عن هذه العقيدة تراب الشرك الذى كدسته فى قلــوب بعــض النــاس الأهــواء الشخصية والمآرب الذاتية، وينقض عنها أوهام المخدوعين من بنى آدم. ويخلصـــها من أوشاب الفتانين ويعيد ترتيب حروفها دررا نورانية، وجواهر إشراقية فى عقـــل وقلب كل من يسمعون نداءه ويلبون دعوته.

قال الله سبحانه وتعالى فى سورة (الزخرف) ﴿ **وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَـا ضَرَبُوهُ لَكَ إلا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ● إنْ هُوَ إلا عَبْـــدٌ أَنْعَمْنَـا عَلَيْـهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إسْرَائِيلَ ● وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُـــم مَّلائِكَـةً فِـي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ● وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِـــرَاطٌ مُّسْـتَقِيمٌ** ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨- ٦١].

قال الإمام ابن كثير الضمير عائد على عيسى عليه السلام ثم المـــراد بذلـــك نزوله قبل يوم القيامة كما قال تبارك وتعالى "وأن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بـــه قبل موته" أى قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام ثم يوم القيامة يكون عليـــهم شهيدا ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى (وأنه لعلم للساعة) أى إمارة دليل علــــى وقوع الساعة قال مجاهد أو انه لعلم للساعة) أى آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة وهكذا (روى عن أبى هريرة وابن عباس وأبى العاليـــة وأبى مالك وعكرمة والحسن وقتادة والحاكم وغيرهم).

ويقول الإمام ابن كثير رضى الله عنه:" وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بترول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماما عــدلا

وحكما مقسطا" وقال تعالى فى سورة النساء ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء: ١٥٩].. وهذه الآية صريحة فى الدلالة على أن هناك دورا أخر لسيدنا عيسى فى هذه الحياة الدنيا فى الجهاد لرفع راية التوحيد وأنه سيجبه القوم من أهل الكتاب بالحقيقة المضيئة لا لبس فيها ولا إبهام، ولا غموض ولا هرطقة بسيطة ببساطة الضوء، باهرة كنور الشمس" إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا""إن الله هو ربى وربكم فاعبدو هذا صراط مستقيم" ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد" وخلاصة ذلك كله

لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم

وفيما يأتى بعض الأحاديث الشريفة الدالة على ذلك روى الإمام البخارى والإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" يوشك أن يترل فيكم ابن مريم حكما عدلا يقتل الدجال، ويقتل الخترير ويكسر الصليب ويضع الجزية، ويقبض المال، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين" قال أبى هريرة اقرؤا أن شئتم" وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته" روى الإمام البخارى أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ " كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم وأمامكم منكم".

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "الأنبياء أخوة لعلات أمهاهم شتى ودينهم واحد وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن نبى بينى وبينه وأنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان فاعرفوه كأن رأسه يقطر وأن لم يصبه بلل يضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الأبل والنمار مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون" كذا رواه أبو داود.

هذه نصوص دالة بقوة على أن سيدنا عيسى سيترل قبل القيامة ليحسم قضية التوحيد لدى الزائفين الضالين من بعده والذين أثاروا الغبار قبل أن تنتهى الدنيا وهو دور مكمل لدوره الذى قام به مع بنى إسرائيل والذى يجتمع فى قصر

الألوهية على الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى ليس له صاحبة ولا ولد والـذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

وأنه يبشر بسيدنا رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وعلى آلـه وصحبه وسلم ويردد ما نزل عليه من قرآن ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص].

شهادته فى الآخرة

يحدثنا القرآن العظيم عن هذه الشهادة العظمى التى يشهد بها نبى الله ورسـوله سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام يوم القيامة بين يدى الله رب العالمين فى أخـر (سورة المائدة) ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة المائدة: ١١٦- ١٢٠].

هذه هى شهادة نبى الله ورسوله سيدنا عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام تركيباتها هى نفس الكلمات التى نطق بها فى المهد صبيا، ودعا إليها رسولا ونبيـا ثم هو سيؤكد عليها عند نزوله من السماء مستكملاً دوره الرائع (لا تغيير ولا تبديـل، فهى تقرير بما قال للناس وما فعل معهم، وهى استسلام واضح لأمر الله، وتفويـض له وخشوع وذل أمامه وخضوع أو قل هو ممارسة لعبوديته الأوابـة، واسـتمرار للإعتراف لله بالفضل والأحدية تبارك الله رب العالمين.

وترديد سرمدى للشهادة الأزلية التى وردت فى القـرآن الكـريم فى سـورة (سورة آل عمران)

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ● إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٨- ١٩].

وبعد يا أخى القارئ

هذه هى الكلمات التى نطق بها نبى الله ورسوله سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كلمته الخالدة ألقاها إلى مريم.. هذه الكلمات التى حدث بها هذا النبى الكريم الناس جميعا فى أشخاص من سمعوه فى المهد صبيا وهى كلمات قليلة فى مبناها كثيرة فى مغزاها . تعب فى تحقيقها، وجاهد من أجل نشرها.. ويعود إلى الأرض لمجاهة الأدعياء بها، وترسيخها فى قلوب من يلتفون به.

وهذه الكلمات هى دعوته ورسالته كما أنها رسالة كل الأنبياء والمرسلين من عهد آدم إلى سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين فما من نبى منهم إلا وقال لقومه إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على الله رب العالمين.ولقد سعدنا نحن أمة سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم بأن كنا اتباع هذا النبى الخاتم والرسول الأعظم سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف.

على يديه تلقينا الهدى، ومن فمه الشريف انساب جدول العلم رقراقا فسقى تربتنا فأنبتت من العلوم والحكم، والمعرفة من كل زوج بهيج.ومن هديه عرفنا إخوانه الأنبياء والمرسلين ومنهم سيدنا عيسى بن مريم عليهم جميعا الصلوات والتسليم ودعوتهم واحدة، ورسالتهم واحدة ودينهم واحد وهو الذى قال لنا فيما يرويه الإمام مسلم فى كتاب الفضائل "باب خاتم النبيين" مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال:" فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين"

ولن يجد معنا أى باحث عن الحقيقة مجرد من التعصب، رائق القلب، صافى الذهن أدل على نور هذه الحقيقة، ولا أرشد للحق والقول الفصل فى هاذين النبيين

الكريمين سيدنا محمد بن عبد الله وسيدنا عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام مثل قوله تعالى فى (سورة النساء) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ۞ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلُيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٧٠- ١٧٥].

﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۞ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۞ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ۞ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٨- ٦٤].وموكب المسلمين الهادر على مر الأيام والسنين وعلى مسيرته الأبدية يرتل بصوت عذب جميل قول الله سبحانه وتعالى فى (سورة البقرة) ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٣٦].

ابن خادمة بنت فرعون قال لأمه وهى تتردد فى الوقوع فى النار يا أمه: قعى ولا تقاعسى فإنك على الحق

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

[سورة آل عمران : ١٦٩ - ١٧٢]

نبأ هذا الوليد:

قال البيهقى أخبرنا على بن أحمد بن عبد الله حدثنا أحمد بن عبد الستار عن ربيس المعدل عن عفان عن حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس قال:

قال رسول الله ﷺ :" لما اسرى بى مرت بى رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة؟ قال ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط المشط من يدها فقالت باسم الله فقالت بنت فرعون أبى"

قالت الماشطة:

"ربى وربك ورب أبيك"

قالت بنت فرعون:

"أو لك رب غير أبى؟!!"

قالت الماشطة:

"نعم ربى وربك ورب أبيك... الله"

قال: فدعاها فقال

"ألك رب غيرى؟"

قالت الماشطة:

نعم: ربى وربك الله عز وجل"

قال فأمر ببقرة من نحاس فاحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها

قالت: إن لى إليك حاجة! قال: ما هى؟

قالت: تجمع عظامى وعظام ولدى فى موضع"

قال فرعون:

ذلك لك (لما لك علينا من الحق)

قال فأمر بهم فألقوا واحدا، واحدا حتى بلغ رضيعا فيهم فقال الرضيع:

يا أمه قعى ولا تقاعسى فإنك على الحق

قال وتكلم أربعة فى المهد وهم صغار هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام إسناد لا بأس به.

هذا هو نبأ هذا الوليد ابن الماشطة التى كانت تمشط لبنت فرعـــون الملعـــون شعرها"

هذه الماشطة سيدة مصرية آمنت بالله رب العالمين لما رأت من آيات الله علـــى يد نبى الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وهى نموذج يتكرر فى أزمنة الرسالات وهى وغيرها ممن يماثلونها.. كالشـهاب الذى يضئ فجأة... فيشع اسكوبا من الأضواء فى ليالى المعاناة.. الـــتى تمـــر بهـــا الدعوات..ثم يعود أدراجه.. فى السموات العلى.. فهى تنتمى لطائفة لها خصوصـــة لها علامات مميزة أولاها الفقر.

فالفقراء دائما هم اتباع الرسل يشهد بذلك الحديـــث الـــذى رواه الإمـــام البخارى رضى الله عنه فى باب كيف كان بدء الوحى يقص وقائع اللقاء الـــذى تم بين هرقل الروم وأبى سفيان بن حرب عندما وصلت رسالة سيدنا رسول الله صلـى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم إلى هرقل الروم هذا ويحســـن أن نضـــئ صفحات هذا الكتاب بهذا النبأ ننقله من صحيح البخارى كما جاء فيه: عن عبـــد الله بن عباس رضى الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب اخبره أن هر قل أرسل إليـــه فى ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم مادّ فيها أبا سفيان (هادنه) وكفار قريش فاتوه وهم "بإيليـــاء" فدعـــاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال أيكم أقرب نســـبا بهـــذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان قلت أنا أقربهم نسبا فقال: ادنوه مـــنى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه: قل لهم: إنى سائل هذا عـــن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه. فو الله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً لكذبـت عنه ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال:

كيف نسبه فيكم؟قلت: هو فينا ذو نسب

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قلت: لا.. قال فهل كان من آبائهم ملك؟

قلت: لا.. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

قلت بل ضعفاؤهم: قال: أيزيدون أم ينقضون؟

قلت: بل يزيدون..قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت لا.

قال: فهل يغدر قلت لا ونحن منه فى مدة لاندرى ما هو فاعل بها. قال (أبـو سفيان) و لم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة قـــال (هرقـــل) فـــهل قاتلتموه؟ قلت نعم: قال فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت الحرب بيننا وبينه ســـجال: ينال منا وننال منه (قال: ماذا يأمركم: قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشـــركوا به شيئا. واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة فقـــلل للترجمان: قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلــــك الرســـل تبعث فى نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكـــرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتى بقول قيل قبله.. وســـألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا.. قلت فلو كان من أبائه من ملك قلـــت جاء يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قـــال.. فذكرت أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.. وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعـــوه وهـــم اتباع الرسل. سألتك أيزيدون أم ينقصون. فذكرت أنهم يزيدون وكذلـــك أمـــر الإيمان حتى يتم.. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكـــرت أن لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب....

وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا. وكذلك الرسل لا تغدر.. وســـألتك بمـــا يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينـــهاكم عـــن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين وقد كنت اعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلـــم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله الذى بعث به دحيه إلى عظيـــم بصـــرى فدفعه إلى هرقل فقراه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم.. سلام على من اتبع الهدى.. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم الأريسيين.

" يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. قال أبو سفيان فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا فقلت لأصحابي حين أخرجنا

لقد أمِر أمْر ابن أبي كبشة: أنه يخافه ملك بني الأصفر فمازلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام. هاقد تبين بجلاء أن الفقراء، والضعفاء هو دائما أتباع الرسل يصدقونهم... ويؤيدونهم.. وينصرونهم ويتبعون النور الذى أنزل معهم..

هذه حقيقة يشهد بها تاريخ الدعوات فقوم نبى الله ورسوله نوح عليه السلام نعوا عليه أن اتباعه من الفقراء قال تعالى فى (سورة هود).. ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [سورة هود : ٢٥- ٣٢] ، واترك لفطنة القارئ أن يتصور كيف كان هذا الحوار الساخن بين سيدنا نوح عليه السلام وقومه بشأن هؤلاء الفقراء

الذين اتبعوه وآمنوا به وبرسالته وكيف كانت ألفاظ القوم موجهة لهؤلاء الفقراء وكيف طالبوا نوحا عليه السلام.. وطردهم من مجلسه وهو رافض لعرضهم مصّر على حسن صحبه هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان بالله والتصديق بنوح ورسالته.

هذا شأن الصراع بين الأغنياء من جهة وبين الأنبياء والرسل وأتباعهم الفقراء من جهة أخرى. ذلك أن الأغنياء ذوى السلطان يرون فى دعوة التوحيد التى يرفع لواءها الأنبياء والمرسلون ما يخافون منه على أنفسهم، وما يهدد مصالحهم ويحطم كبرهم وغرورهم فيصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين.

ويتضح ذلك من وجوه:

الأول:

إن السادة الأغنياء يرفلون فى النعيم. تحيط بهم مظاهر الأبهة... كل ما حولهم من متاع الحياة الدنيا يتملق غرائزهم ويلبى حاجاتهم ويحقق فيهم نوعا من بلادة الإحساس تصحب كل كلمة يتفوهون بها، وكل تصرف يصدر عنهم... فهم فى غفلة يترددون... تتلخص حياتهم فى أطباق الطعام وكئوس الشراب وبحيرات الملذات وممارسة الشهوات بغير اكتراث أو اهتمام بمن حولهم...

إتخذوا إلهم هواهم فهم فى سكرتهم يعمهون... لا يسمعون إلا صوت غرائزهم تعوى فى أجسادهم عواء الذئاب فلا يشبعون من طعام... ولا يرتون من شراب... ولا تسكت هذه الغرائز إلا بمزيد من ممارسات الرذائل وارتكاب كل ما عرف الإنحطاط من أفعال تتدنى بالإنسان إلى أحط دركة من دركات الحيوانية العمياء.. وهم دائما لا يسيرون فى شوارع الحياة إلا محوطين بكوكبة من المنافقين... قد اظهروا لهم حبا فأضمروا بغضا يدارونه بمعسول الكلام... ويضفون على سيئاتهم الإستحسان والإستملاح... ويصنعون من ألفاظهم البراقة ثيابا من الخداع.. والتملق... وكل ذلك يشجعهم على المضى فى طريق الغواية والضلال ولذلك فإنهم يتعلقون بهذه الحياة التى يحبونها... السعادة عندهم فى اللذة الحرام ينعمون بها فى الليالى الحمراء ويراقصون فيها أشباح الشياطين من الأنس والجن. والسرور عندهم لا يتم إلا فى صورة أثم يقترفونه أو فى مال يحصلونه من طريق الإبتزاز... والسرقات.. والنصب والإحتيال.. وإغتنام ضعف الأرملة واليتيم فى تحقيق الكسب الحرام...

مثل هؤلاء يطمئنون لهذا اللون من ألوان الحياة... ويودون أن يعيشوا حياتهم كلها فى هذا الحلم الجميل الذى زينه لهم شيطانهم.. ولذلك فهم يفاجأون بصوت الحق.. يصفع هذا الحيوان الذى بداخلهم... صارعا بكلمة الحق لا إله إلا الله.. فيفتح عيونهم على حقيقة هم لها رافضون لأنهم منها خائفون... ومن القيام بواجبها هاربون ونافرون...

إن الرسول يرسل إليهم يكشف بكلماته المضيئة عن حقيقة الإنسان الكامنة فى داخلهم ويشير إلى السماء.. حيث ينبههم إلى أنهم يدينون بوجودهم وبما يملكون لله رب العالمين... وهم مسئولون بين يديه عما هم فاعلون... إنه يلوى أعناقهم ويفتح عيونهم على أنوار المثل الأعلى لكنهم... لا يريدون... ولا يقبلون... ذلك أنهم فى حياتهم قبل أن تأتيهم هذه الكلمات ينعمون بالسعادة وحدهم متفردين ومتميزين عن غيرهم من الفقراء الذين لا تسعفهم معطيات حياتهم بمثل ما به الأغنياء يحظون... ويسعدون.

فلا الفقراء يستطيعون أن ينهلوا معهم من هذا النعيم تقصر عن منال ذلك أيديهم وتقعد بهم أسباب حياتهم فهم يعيشون بعيدا عنهم عيش الذل والهوان... فما بال صاحب الرسالة يريد أن يخرجهم من هذه النشوة وهذا الخيال العذب والحلم الجميل.... لا..لا ..لا... يكررونها فى غير ملل يرفضون الدخول فى هذا الدين .. وأما ذو السلطان والنفوذ : من الملوك والجبابرة ومن يحيطون بهم من المنتفعين فهم أيضا عن الذكر معرضون يخافون على ملكهم أن يزول .. فهرقل هذا الذى جاء ذكره فى الصفحات السابقة لم يمنعه من الدخول فى الإسلام إلا خوفه على ملكه وإمارته .. انظر إليه فى موقفه هذا الذى يواصل الإمام البخارى حديثه عنه فى نفس الحديث الذى رواه الإمام ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب : قال أبو سفيان فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا فقلت لأصحابى حين أخرجنا لقد أمر ابن أبى كبشة . انه يخافه ملك بنى الأصفر .

فمازلت موقنا أنه سيظهر حتى ادخل الله على الإسلام وكان ابن الناظور صاحب ايلياء سقفا على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم ايلياء اصبح يوما خبيث النفس فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك .. قال ابن الناظور : وكان

هرقل حزاء ينظر فى النجوم فقال لهم حين سألوه إنى رأيت الليلة حين نظـــرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة قالوا ليس يختتن إلا اليهود فـلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مداين ملكه فيقتلوا من فيهم من اليهود فبينما هم علـــى أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رســـول الله ﷺ فلمـــا استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا امختتن هو أم لا فنظروا اليه فحدثوه انه مختــتن وسأله عن العرب فقال هم يختتنون فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظـــهر ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية ؛ وكان نظيره فى العلم وسار هرقل إلى حمـــص فلم يرم [1] حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه وافق رأى هرقل على خروج النـــبى ﷺ وانه نبى فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكره لهم بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقــت ثم اطلع فقال : يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبـــت ملككـــم فتبايعوا هذا النبى ؟!! فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها قد غلقت فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال ردوهم على وقال : " إنى قلت مقالتى آنفا اختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلـــك أخر شأن هرقل " انتهى حديث البخارى .

والحديث على طوله : يلخص لنا موقف الهرقل هذا فى أنه عـــرف ســـيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه آله وصحبه وسلم على انه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم قرشى عربى وقد اتضح له من علمه أنه خاتم الأنبياء وانه المنصـور دائما .. وان دينه هو الظاهر دائما وقد بلغ رسالة الإسلام لقومه .. لكنه لما وجـد منهم اصرار على كفرهم خاف ان هو اسلم يذهب ملكه عنه .. فنكـــص علـــى عقبيه .. وهذا شأن الملوك يخشون التسليم برسالة الرسل لآن فى ذلـــك ســـقوط تيجانهم .. وذهاب سلطانهم وإزالة دولتهم .. وهم لذلك رافضون .

وقد انطوى تاريخ الإسلام عل مثل هذه المواقف من التناقض من التناقض بين الفقراء والأغنياء فى تلقيهم للإسلام .

أولا: الأغنياء رفضوا الدخول فى الإسلام لخوفهم على مراكزهم الإجتماعية.. ولآن الإسلام يساوى بين الفقراء والأغنياء فى المعاملة .. بل إنهم لما أعمى الغـــرور أبصارهم وبصائرهم فإنهم نظروا إلى النبوة كزعامة وإلى القرآن نفسه كمقوم مـــن

[1] لم يرم : لم يغادر .

مقومات الرئاسة الدنيوية فطلبوا ذلك لأنفسهم زاعمين زعم الكفران ذلك كثير على سيدنا رسول صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وانهم أولى به منه عليه الصلاة والسلام . ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ [سورة الزخرف: ٣١]. فرد عليهم القرآن الكريم فى سؤال جردهم من العلم والعقيدة ورماهم بالجهل.. وأمراض القلب وأولها الحسد فقال ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [سورة الزخرف: ٣٢].

انظر معى إلى أبي سفيان بن حرب فى حواره مع هرقل نجد أنه رغم أنفه قد بلغ الإسلام لهرقل ومن حوله من رجال حاشيته والمحيطين به من الأساقفة والقساوسة وسياق كلامه عندما سأله عما يأمرهم به نبينا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وقال إنه يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن الشرك به سبحانه وتعالى وأن يتركوا ما يقول آباؤهم ويأمرهم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة...!!

لقد كان أبو سفيان يومئذ على الكفر ولم يكن أسلم وقد واتته الفرصة أن يسلم لله فى ذلك المجلس وقد سجل عليّ نفسه بنفسه إذ أنه قال:" فمازلت موقنا أنه سيظهر حتى ادخل الله على الإسلام (!!!) لقد ظل أبو سفيان على عناده فترة طويلة ملأها بالحقد على سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ونقش بأظافره على جدرانها وقائع الكيد له وإشعال النار على طريقة ومن حوله... متعاونا فى ذلك مع صناديد الكفر من قريش الذين كانوا يتبوأون مراكز اجتماعية خشوا عليها وعلى أنفسهم الضياع بظهور الإسلام وظهور هذا النبي الكريم والرسول العظيم سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وسجل عليهم القرآن الكريم موقفهم هذا فى قوله عز وجل فى (سورة الأنعام) ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [سورة الأنعام: ٣٣] ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولننظر إلى ناحية اليمين حيث سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم نجد الذين اتبعوه واتبعوا النور الذى انزل معه معظمهم من الفقراء والضعفاء وأمثال

سادتنا ذوى القدر الجليل بلال بن رباح؛ وعمار بن ياسر وأبيه ياسر بن عمار وأمه سمية والخباب بن الأرث وصهيب الرومى.. وهؤلاء الذين ذاقوا على أيدى الطغمة الفاسدة من سادة قريش ألوان العذاب.

والغريب أهم تعرضوا لما تعرضت له بطلة قصتنا هذه ماشطة بنت فرعون ولاقت سمية من العذاب والتعذيب، والهوان والتهوين ما يشيب منه الوليد.

اختتمت كفاحها.. وجهادها العجيب.. بالرحيل عن الأرض والإرتفاع إلى السموات العلى... والفردوس الآعلى من الجنة لتكون أول شهيدة فى الإسلام. وتلحق ببطلة هذه القصة... كوكبا متوهجا مضيئا فى سماء الدعوة إلى الله عز وجل ورسوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

إن ماشطة بنت فرعون خيرت... فاختارت.. خيرت بين الحياة كافرة وبين الموت مؤمنة... النار أمامها مشتعلة داخل بقرة من النحاس وكان المصريون القدماء قد برعوا فى صناعة التماثيل تصور الإنسان أو الحيوان والطير فأمر فرعون بصناعة تمثال من النحاس لبقرة ضخمة فلما نفذ له من حوله هذه الرغبة الآثمة ملأ جوفها بالوقود وأشعل النار.. فامتدت ألسنتها تهدد بالموت هذه السيدة الجليلة... وتلفح بشواظها وجهها المضئ بنور الإيمان.. ولم تتردد الشهيدة فى الوقوع فى هذه النار إلا بعد ما رآت أن الذين يساقون معها إلى هذا الجحيم المستقر أطفالها الصغار .. وضمنهم طفل رضيع .. فى وضاءة الزهور ونعومة الفراش .. ورائحة الورود.. ووضاءة القمر وصفاء ماء النيل وعذوبته .. فما ذنبه يلقى الموت محترقا تتنازعه السنة هذه النار الوقحة ؟! فداخلها التردد قليلا فى هذه اللحظة ولو أنها تصنعت الكفر بظاهر اللفظ ينطلق بها لسانها لكانت على ذلك مكرهة تسعها رحمة الله ويلفها حنانه عز وجل " إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان " ولكن الله كريم وسعها بكرمه وأغدق عليها العطاء بدرجة قريبة من درجة النبوة إلا وهى الشهادة فى سبيله عز وجل .

وكان إن حرك لسان الطفل الرضيع ليقول لها على غير توقع وانتظار . "يا أمه قعى ولا تقاعسى فإنك على الحق " .

هناك امتلأ سمعها بألحان الجنة وأناشيد الحور العين .. وتلقت روحها الأشارة فأبصرت الجنة تدعوها بأعلى صوتها وتقول لها زهى غرسى .. وطابت ثمارى ..

وتزينت من أجلك جدراني .. وطال شوقي إليك فتعالى فلم تتوان لحظة وألقت نفسها على درجات السلم سلم الإرتقاء إلى السموات العلى .. إلى الفردوس الآعلى .. على جبينها يتلألأ تاج الإيمان وإكليل النصر ينافس كل منهما الأخر فى اختراق السموات نوار يشع فى أرجاء الوجود .. ليكتب كلمة الحق: لا إله إلا الله.

وتركت لفرعون تاجه وقد تدحرج من فوق رأسه فى الطين والحمأ المسنون.. يتجرع كأس الهزيمة النكراء .. والخذلان المبين بعد أن فشل فى السيطرة على خادمة كانت تخدم ابنته .. فشل فى إجبارها أن تقول كلمة ترضيه ... وهو الذى يقول أنا ربكم الآعلى .. أين القوة والقهر والجبروت أيها المسكين فرعون ؟!! لقد استقر معك فى قاع البحر بعد أن ابتلعتك وإياه أمواجه الكثيفة بعد أن روعك البحر بسبحه المتفجر فارتاع قلبك الخاوى وسيطر عليك الرعب .. فطرت فرقا وفزعت قلقا فقلت مكرها جبانا .. مالم تقله مغرورا مفتونا...؟!! قلت وأنت ذليل مقهور.. مالم يرق لك وأنت وسط حاشيتك وجيشك... وأنبأنا الله بذلك فى القرآن العظيم فى (سورة يونس) ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ● آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ● فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [سورة يونس: ٩٠- ٩٢].

أما أنت أيها الطفل الرضيع:

لقد ختمت حياتك... الجميلة الوضيئة التى زهت بزهو الطفولة اليانع..وضمخت صدر أمك وأبيك بعطرها الفياح... بهذا الأسكوب الجميل من النور تدفق على لسانك حكمة وعظة فلخصت كلماتك حياة الإنسان كلها منذ خلق الله أدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قلت بلسانك الصغير ختاما لأيام حياتك القليلة ما يفيد أنك عشت على الأرض ألف عام قضيتها كلها متفرغا لعبادة الله... ولقنت هذا الدرس العظيم لمن يعيش على الأرض من مواكب الإنسان فى مسيرته نحو الله حتى تقوم الساعة حيث يرددون معك" يا أمه قعى ولا تقاعسى فإنك على الحق".

فاهنأ أيها الطفل بأحضان أمك فى الفردوس الأعلى من الجنة تنعمان برحمة من الله ورضوان ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ • فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ • يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ • الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩-١٧٢].

طفل الأخدود عربي

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. [سورة البروج : ١ - ٨]

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ • وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ • وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ • قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ • النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ • إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ • وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ • وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ • الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ • إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ • إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ • إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ • وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ • ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ • فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ • هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ • فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ • بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ • وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ • بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ • فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾

صدق الله العظيم.

القصة:

جاء في صحيح مسلم عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال:

كان ملك فيمن قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك إني قد كبرت فابعث إلى غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه فشكى ذلك إلى الراهب فقال:

إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي، فإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس.

فقال اليوم أعلم الساحر أفضل

أم الراهب أفضل؟

فأخذ حجرا فقال:اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر.

فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس.

فرماها فقتلها، ومضى الناس.

فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن أبتليت فلا تدل على.

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس الملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال:

ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني فقال: أني لا أشفى أحدا... إنما يشفى الله فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك. فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك:

من رد إليك بصرك؟ قال: ربي

قال: ولك رب غيري؟

قال: ربي وربك الله

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجئ بالغلام فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص؟ وتفعل وتفعل؟

فقال إني لا أشفى أحدا، إنما يشفى الله

فأخذه فما زال يعذبه حتى دل على الراهب.

فجئ بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنسار (المنشار) فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه.

ثم جئ بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه.

ثم جئ بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل؟ فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل.

فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا.

وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك قال: كفانيهم الله.

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا فاحملوه فى قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به.

فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة ففرقوا وجاء إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ قال كفانيهم الله.

فقال للملك إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به قال وما هو؟ قال:

تجمع الناس فى صعيد واحد، وتصلبنى على جذع ثم خذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام. ثم ارمنى.

فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى.

فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال

بسم الله رب الغلام — ثم رماه فوقع السهم فى صدغه فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات.

فقال الناس آمنا برب الغلام

آمنا برب الغلام

آمنا برب الغلام!!!

فأتى الملك فقيل له!

" أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك.

قد آمن الناس.

فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فخذت وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها. أو قيل له أقتحم حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام:

يا أمه اصبرى فإنك على الحق

من هذا الصبى؟

بعد أن قرأت هذا الحديث الشريف الذى جاءت به الكتب الصحيحة بتاجيها الكريمين وهما صحيح البخارى، وصحيح مسلم رضى الله عنهما تتوق نفسك أن تعرف اسم هذا الصبى الذى أثار من حوله عبير الإيمان بعد أن فجّرها ينبوعا فى قلوب أهله وعشيرته، وتتوق نفسك أيضا إلى معرفة شئ عن بيئته وعن الأرض التى عاش عليها.

وأنى اعترف لك أيها القارئ الكريم أننى؟ بتتبع أنباء هذا الغلام من شدة إعجابى به وأنبهارى بما أجراه الله على يديه. كذلك حرصت على التعرف على هؤلاء الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ولم تستطيع النار الضارية أن تصرفهم عن إيمانهم.

فهرعت إلى كتب التاريخ فوجدت كتاب" سيرة النبى ﷺ لأبن محمد عبد الملك بن هشام" فعرفت فى الجزء الأول ص٣٣ نبأ هذا الغلام.

أنه عبد الله بن تامر.

هذا الصبى الذى أقتنع بالنصرانية وعبد الله سبحانه وتعالى على دين سيدنا عيسى نبى الله ورسوله عليه السلام.وهو عربى من أهل نجران فى شمال الجزيرة العربية ولعل الراهب الذى درس معه هذا الدين هو" فيمون" الذى أقام فى هذه البقعة وعرف أهلها عن طريقه دين المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

كلمات الطفل:

"يا أمه اصبرى فإنك على الحق"

إن هذا الطفل الصغير كان وليد أيام قليلة لم يبلغ درجة النمو التى يقدر فيها على الكلام.

وأن الدارس لموقف هؤلاء المؤمنين فى ذلك اليوم العصيب يجد أن هذه العبارة ذات الكلمات القليلة قد حملت فى ثناياها شحنة جبارة من الإيمان بالله اجتازوا بها الطريق إلى الجنة فى صبر وثبات.

وهذا يجعلنا نقف أمام هذه العبارة التى نطق بها هذا الصغير لنعرف ما أدته من وظيفة وما تركته من آثار مباركه.

أم هذا الطفل قد آمنت بالله، وتوهجت شعلة الإيمان فى قلبها فأضاءت لها دنياها، ووصلتها ببارئ الأرض والسماء فشعرت بقوة تملأ كيانها، ونعمت بأنس الانتماء لله عز وجل وما يثمره من شعور بالعزة والشرف، لأنها أصبحت أمة لله وحده وليست أمة لأى مخلوق مهما كان وهذا عمق الحرية لقد تغلغلت أشعة الإيمان فى قرار كيانها فكشفت سبيكة العبودية لله وحده فخلصتها من أوشاب الشرك حتى تألقت على صفحة قلبها حروف

لا إله إلا الله

فسعدت هذه المرأة بإيمانها وفرحت بخلاصها من ليل الشرك الذى قاست من أشباحه وشياطينه إلى نهار الإيمان الذى سعدت بملائكته ورياحينه وهى الآن فى إمتحان:

إن هذا الملك المغرور قد احتفر لها ولإخوانها وأخواتها الأخاديد وأضرم النار فيها.. وألسنة هذه النار تتصاعد وتلتهم أجساد الناس أمامها والملك وجنوده ينعمون بالنظر إلى ضحاياهم وهو يهوون إلى قاع الأخدود يتلظون بهذا السعير المسعور فتسيل أجسادهم حميما، وتنصهر عظامهم لهيبا. ولا ريب أن هؤلاء الشهداء كانوا يصيحون عند إلقائهم فى النار.. فتختلط صيحاتهم، وتتصاعد أنـاتهم فتدوى فى أعماق هذه السيدة الجليلة وهى مقبلة على حافة الأخدود...

وفى هذه اللحظة ترمق وليدها بنظرة إشفاق ورحمه.. إنها إن تحملت الحريق... والتقلب فى النار فإن هذا الوليد لن يقوى على ذلك ولن يستطيع وأن تجرعت الأم الموت... فإن هذا الطفل لن يتحمل سكراته...

إنها فى هذه اللحظة تتعذب مرتين... أحداهما أقوى من الأخرى.

فعذابها واحد محتمل... لكن عذاب طفلها مضاعف لا يطاق...

وفى هذه اللحظة يوشك الضعف أن يتسرب إلى قلبها ويقترب التردد بشبحه المخيف من كيانها!!

إنها فى حاجة إلى العناية الإلهية.. لتدركها فتنجدها من هذا الضعف وهذا التردد.

وتسكب فى كيانها دفء اليقين.

ووافتها العناية الإلهية بهذا العمل غير العادى كلمات ينطق بها وليدها الذى تخاف عليه من الهلاك.

" يا أمه اصبرى فإنك على الحق" إنها دفقة من دفقات اليقين تلقتها هذه المرأة فسرت أنوار هذا اليقين فى قلبها وذاقت فى شرابها وصل الله لها وسمعت فى كلماتها نداءه لها أن إلينا فالحياة الحقيقية عندنا.

" يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى".

لقد أدى هذا العمل الخارق دوره الممتاز فى تثبيت هذه المرأة على إيمانها.

" يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء" بل إن هذا لم يقتصر على أم الوليد وحدها وإنما نعم به كل من سمعه من شهداء الأخدود فاندفعوا إلى النار لا ينطقون إلا كلمة واحدة هى

لا إله إلا الله

ماضين على الطريق... طريق النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. وبعد

أيتها الأخت شهيدة الأخدود

سلام عليك فى العالمين

فقد صعدت إلى رب كريم رءوف رحيم

وقبل أن تصعدى ركلت بقدمك الطاهرة تاج هذا الملك الجبار المغرور فهوى إلى تراب الهزيمة ووحل الذل والهوان..

أنتصرت أنت على الملك الكذاب... لما كشفت زيفه وحطمت غروره وسحقت ألوهيته الكاذبة..

وتحول ضعفك إلى قوة أعجزت جبروته وأشعرته بحقيقة أمره... إنه كـاذب أمام نفسه إذ لا حول له ولا قوة فى حقيقة الأمر... فلو كان له حـول أو قـوة حقيقيان لا أنتزع منك كلمة تمجيد له أو تأليه لكيانه المتخاذل... لكنه لم يفلـح بل أنك صدعت أمامه بشهادة

لا إله إلا الله

فانزوت نفسه فى داخل كيانه وخنس شيطانه فى أسمال ضعفه..
وأمام شموخك، ومجدك ذل سلطانه وهوى صولجانه...
وعلت فى الأفاق كلمة الحق.
كلمة

لا إله إلا الله

لأنها كلمة الله العليا...وأهنأى أنت أيتها الشهيدة الكريمة على الله بما أعـده لك ولإخوانك ممن يسعدون بمترلتك وكرامتك من نعيم مقيم.

وأن لك صحبة أخيار من أمة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلـى آلـه وصحبه وسلم ومنهم أخت سبقتنا بالإيمان وهى سمية زوجة عمار الشـهيدة الأولى فى الإسلام، والتى ابتليت بطاغية كالطاغية الذى ابتليت أنت به فأوقد لهـا النـار واصطلت بها مثل اصطلائك ثم كان أن طعنها بالرمح فصعدت روحها لله شـهيدة فى عليين.

وهى معك الآن فى جنات النعيم...
نحن على يقين من ذلك يا أختاه...
وهذا اليقين ينبع من كلام الله القديم فى قرآنه العظيم.

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩- ١٧١].

شاهد دريد العابد

قال: ردا على سؤال

دريد من أبوك ؟

قال: أنا ابن الراعى

فلان [من بنى اسرائيل]

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾. [سورة الإسراء : ٢٣ ، ٢٤]

القصة

جاء فى صحيح مسلم هذا النبأ فى: كتاب البر والصلة والآداب تحت عنوان "تقـدم الوالدين على التطوع بالصلاة" وغيرها ما يلى:

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وكان جريـج رجـلا عابدا فاتخذ صومعه فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلى فقالت: يا جريج فقال يا رب أمـى وصلاتى فاقبل على صلاته فانصرفت فلما كان فى الغد أتته وهو يصلى فقالت يا جريـج فقال يارب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتتـه وهـو يصلى فقالت يا جريج فقال: أى ربى أمى وصلاتى فاقبل على صلاته فقالت.

اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه الموسمات

فتناكر بنو اسرائيل جريجا وعبادته، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها فقـالت: إن شئتم لأفتتنته لكم قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعيا كان يأوى إلى صومعته فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت فلما ولدت قالت هو مـن جريـج. فـآتوه فاستترلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه.

فقال ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغى فولدت منك !!! فقال أين الصبى فجاؤوا به

فقال: دعونى حتى إصلى فصلى فلما إنصرف إتى الصبى فطعن فى بطنه وقال: يـا غلام: من أبوك؟

فقال: فلان الراعى (!!!)

قال فاقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا نبنى لـك صومعتـك مـن ذهب؟قال: لا.. أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا

انتهى الحديث.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن دريد عبد صالح من عباد الله الذين نذروا أنفسهم لعبادة الله عز وجل على دين عيسى المسيح بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. وإن حبه لله شغله تماما فـــأقبل بكليته عليه.. تحرر تماما من زهرة الحياة الدنيا... واستخلص نصيبها من كيانه وألقى به خارجه فلم يعد لها أى سلطان عليه.. زهد هذا العابد فى هذه الحياة الدنيا...وزخرفـــها وزينتها... ورضى منها بخشن الطعام يتقوت به لا يتجاوز ما يسدّ رمقه...

ورضى بالمرقع من الثياب لم يتجاوز ما يستر عورته و لم يتخذ لنفسه زوجة تشـغله عن جلال الله وجماله وعن عبادته وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلـــد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد... وعزف عن الولد حتى يخلص كيانه له فيســـتخدمه فى إرضاء الله عز وجل تسبيحا لله وحمدا له. أنه يبيت لله راكعا ساجدا... قائما يرجــــو رحمة ربه... وينهل من نهر وصله فيرتوى من ظمأ ويزيد مع الأيام عشقا لله، وانشـغالا بمواهبه الدنية وإشراقاته القدسية فيزداد إقباله على الله، ويتأجج من ضلوعه شوقا مـــن نوع غريب يجد ملذته فى الإحتراق ويجد نفسه فى الأحتراق ويجد نفســـه فى الفنـــاء فى معبوده العظيم.

جميل جدا ذلك الأثر الذى يقول أن سيدنا أبا بكر الصديق كان إذا تجلى عليـــه الله تبارك وتعالى تشم منه رائحة كبده يحترق. وهذا جزء من صفحات وصـــل الله – ... أنه كلما وصلك كلما زدت به هياما وإليه شوقا وازداد نوره فى داخلك تألقا وازدهارا. فبدت أمامك حقيقة الأشياء ظاهرة لا لبس فيها بعد أن تتلقى من الله البرهـــان الـــذى يقول لك كلمة الفصل فى الأزل والأبد فتتلاشى أمامك المخلوقات.. وتتنـــاهى الأيـــام ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

هذه اللذة والمتعة هما اللتان عزلتا دريد عن الدنيا بأسرها.. فلما طرقت أمه الباب.. ونادته بأعلى صوتها.. كان النداء الذى فى داخله يأتيه من قلبه ووجدانه أقوى وأعلى إذا سمع هذا النداء تردده جدران الزمان والمكان ويأتيه الصوت من كل مكان بلا كيـف ولا

حصر.." إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى" فعاودت أمه النداء " يـا دريد".

ولكن أين دريد؟!!.. إنه سابح فى بحر من نور الله يتقلب فى الساجدين... فذابت صيحة أمه فى هدير هذا الموج المتدفق فى داخله... ولم يجد نداء أمه.. لقد استغرق هـذا العابد فى لذة القرب من الله عز وجل ومن حلاوة متعته هذه شعر بأنه نـال السـعادة كلها، وحاز ما تطمح إليه كل روح مؤمنة، وما يسـعى إليـه رجـال الله وأوليـاؤه الصالحون.

لكنه قد غاب عنه شئ عظيم، لابد أن يحسب له كل عابد لله ألف حسـاب. وأن يجعله مصدرا لكل عمل خير يفعله، وينبوعا لكل دفقة عطاء يحاول أن يتقرب بها إليـه. هذا الشئ الجميل والمعنى الجليل الذى غاب عن دريد العابد هو أنه يعبد الله على مـراد الله وليس على مراد دريد.. ولو أنه أبصر هذه الحقيقة لعلم أن الدين كل لا يتجـزأ وأن الله لا يعبد حق العبادة إلا بما رسمه عز وجل وما وضعه من شرائع.

فلا ينبغى لعابد أن يتمسك بلون من ألوان العبادة ثم يترك لونا أمر الله به وفرضـه فإذا رغب فى القرب من الله فليمتثل لأوامره وليتقرب إليه بما افترضه عليه لا بما يحـدده لنفسه من ألوان العبادة.. وفى الحديث القدسى الذى رواه الإمام مسلم القول الفصـل روى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

" أن الله – عز وجل – قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقـرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبـه فإذا أحببته، كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بهـا، ورجله التى يسعى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لإعيذنه، وما ترددت عـن شئ أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن، يكره الموت وأنا اكره مساءته".

والله تبارك وتعالى قد جعل بّر الوالدين فى الدرجة من الإهتمام التى تتلـو عبادتـه مباشرة

وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا..إذن فبر الوالدين فريضة من الله فرضها على عباده وجعلها فى المرتبة التالية لعبادته.

وما دام دريد قد نذر نفسه لله وباعها له وأخذ على عاتقه تنفيذ هذا العقد من جانبه فإن استقباله لأمه وبرها والحفاوة بها كانا مقدمين على ما يمارسه من صلاه نفل كان يصليها إذ أن الفرض يعلو النفل فى الدرجة ويقدم عليه فى الأدراء.

ذلك أن الوالديه قيمة كبرى يتعين الوفاء لها مثلما يتعين الوفاء للألوهية والربوبية الثابتين لله رب العالمين... وهذا حكم الله عز وجل.

هذا ما قضى به الله سبحانه وتعالى أما وقد تجاهل دريد هذا الحق الثابت لأمه وحرمها من رؤيته وهى التى استوحشته، فلعب الشوق فى قلبها لعبته، ذلك أنها أم يتدفق قلبها حنانا ورحمة، وحبا وحنينا.. لابنها الذى أخذته العبادة لله منها... فذهبت تنقع غلة الشوق المتأجج بين ضلوعها، وتطفئ لظى الحنين المؤرق لها... بنظرة لأبنها أو جلسة تجلسها معه، فيطمئن عليه خاطرها وترتوى ضلوعها من مصافحة وجهه الساجد لله.. فإن دريد إذ لم يستجب لهذه الأشواق الإنسانية لأمه يكون قد حجب عنها حقا أملاه المشرع الحكيم سبحانه وتعالى وكفلته شريعته التى يعبد الله عليها. ألم يسمع دريد ويقرأ ما نطق به أستاذه وهاديه ونبيه الذى يعبد الله على الشريعة التى جاء بها.

وهو سيدنا عيسى بن مريم روح الله وكلمته وهو مازال فى المهد صبيا..

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾

[سورة مريم: ٣٠- ٣٢].

آه إن دريد قد غفل عن هذه المسئولية الكبرى تجاه والدته فلم يجبها إذا نادت عليه طالبة فتح الباب لتجلس معه وتناجيه وحسب إنه بذلك يقدم الصلاة لله عن بر والدته فيكون بذلك حائزا لدرجة أعلى وأرقى لكن الله يحب أن يعبد بما شرع من قواعد وما أوجب من أحكام ولا يقبل عبادة تخريج من ركام النفس أو الهوى فهو الذى قال فى الحديث القدسى الذى رواه.. الإمام مسلم" ما تقرب إلى عبدى بأفضل مما افترضته

عليه.. لذلك فإن هذه السيدة الجليلة حازت تأييد الله عز وجل عندما توجهت إليه تدعو على ابنها وتقول:" اللهم لاتمته حتى يرى وجه المومسات".

استجاب الله الدعاء!!! ورأى دريد وجه المومس وهى تتهمه بجريمة الزنا التى هو منها برئ و لم يفعلها.. وكان هذا استجابة للدعاء الذى دعته عليه أمه لكن الله سبحانه وتعالى إذ أنزل قضاءه على عبده هذا فإنه فعل ذلك لحكمة تخلص فى إعلاء قدر الوالدية واعطائها حقها والله هو الولى وهو لأنه الحق أولى بإعطاء الحقوق.. فالحق اسم من أسمائه الحسنى وهو الحكم العدل اللطيف الخبير.

ولذلك فإن الله أنزل لطفه مصاحبا لقضائه على عبده دريد وأيده بالكرامة التى ذكرها هذا الحديث الشريف حيث انطق له هذا الطفل الوليد لساعة أو ساعتين عندما سأله:

" أبن من أنت" فنطق الطفل" أنا ابن الراعى فلان".

صدع بها الطفل حقيقة وضعت الأمر فى نصابه وغسلت بأضوائها ثوب البراءة الذى تزين به دريد العابد وحاول القوم تلويثه ببقعة الحرام وأذى الزنا ووحل الفحشاء.

الحمد لله رب العالمين

إن هذه كرامة لدريد أجراها الله سبحانه وتعالى على يديه.. فكان لها عنقود جميل من الآثار الطيبة نشير إليها فيما يلى:-

أولا: بالنسبة لدريد:

تلقى الدرس ووعاه أنه يعبد الله ذا الجلال والإكرام فزاد يقينه، وقويت طمأنينته، ورسخت عقيدته وعظمت ثقته فى نفسه وفى إيمانه وفى الله رب العالمين.

إن الله تبارك وتعالى دافع عنه بأفضل وسائل الدفاع فانطق الوليد غير الصالح الذى حاولت البغى إلصاقه به.. فكذبها الله وبرأ دريد من هذا الإتهام الشنيع.

ربا إيمان دريد... ونما الكائن الروحى فى كيانه فحمد الله حمدا عظيما... وعادت إليه نفسه التى مزقتها المفاجأة الحزينة والمأساة المروعة التى صنعها القوم بهدم صومعته وحزنه وإيذائه فجزاه الله جزاء حسنا إذا كشف له حقيقة هذه النفخة الإلهية

إنها بلاء من الله عز وجل يمحص به إيمانه، ويزيد به معدنه القا وبريقا ليسرى فى كيانـــه كله فتغشاه سكينة يعرف لذتها كل عباد الله الصالحين ألا وهى حلاوة الإيمان.

وأما الجزء الثانى من الدرس الثانى فقد علم أن أمه كانت على حق... وأنه أهمـــل هذا الحق وإن هذا الذى حدث إنما هو عدل الله الذى أتصف به فإنها أم لهـــا حقـــوق شرعها وأهملها هذا العبد فكان لابد أن ينال الجزاء الذى يعيده إلى حظيرة الحق فيفيـــق من نشوته ويعلم أن للوالديه حقا يجب أن يرعاه... ويؤديه فى خشوع وتبتـــل لله رب العالمين جنبا إلى جنب مع الصلاة لله الأول والأخر والظاهر والباطن وهو بكـــل شـــئ عليم.

أنعم به من درس تلقاه دريد العابد واستوعبه إلا وهو درس الوفاء... وهل ينفصل الوفاء عن الإيمان؟!!

إنهما قرينان لا يفترقان وإن شئت فقل إن الوفاء والإيمان وجهان لحقيقة واحـــدة وإنهما خير النعم التى يمنحها الله لعباده الصالحين.

ثانيا: الدرس الذى يتلقاه الناس:

إن من كرم الله لأوليائه أنه إذا أصابهم فضل منه فإن هذا الفضل لا يكون قـــاصرا عليهم بل هو يعم جميع الناس بسببهم وإن شئت فاقرأ ما قاله سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام وتحدث عنه القرآن الكريم فى ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُـوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّـاسِ وَلَكِـنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ** ﴾ [سورة يوسف: ٣٨].

فماذا تلقى الناس من درس تجربة دريد؟

البصيرة فى العبادة

ذلك إن عبادة الله الحقه تكون مثالية إذا كانت فى ضوء الفقه والبصيرة فإذا كـــان العابد عالما على بصيرة فإنه يكون حاز الدرجتين، واقتنى الجوهرتين. العلم والعبـادة.... فالعلم يقول والعمل يشهد. ولذلك نجد القرآن الكريم يجلجل بهذه الحقيقة ويصدع بهـــا

فى ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨].

دائماً رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم على بصيرة وأتباعهم كذلك على بصيرة.

وهذه البصيرة كانت تقتضى من دريد التنبه إلى كلية الدين دون تجزئته والتسليم لله بكل الحقوق التى شرعها.

وإذا كان يتلذذ بفرض من فروضه أو نوع من العبادة مال إليه فإن هذا لا يجعله يهمل بقية أنواع العبادة إذ أن كل عبادة تكون هى الأولى بالأداء إذا جاء وقتها وتهيأت ظروفها فلا ينصرف عنها العابد إلى غيرها لأنها حينئذ تكون أمر الله الذى يجب أن يطاع فلو أن دريد ترك صلاة النفل وبر أمه واستقبلها لكان فى هذه اللحظة أقرب إلى الله سبحانه وتعالى منه وهو فى الصلاة. فالصلاة التى كان يصليها نافلة وإجابه أمه فرض إذن إكرام الوالدين أصل من أصول الإسلام.. ذلك أن أمه هى سبب من الأسباب القوية فى وجوده، ائتمنها الله على سر خلقه وتكوينه وحملته جنينا وغذته وليدا وكانت فى جميع هذه المراحل تسكب كيانه قطرات كيانها. وقدمت له بتلقائية جميلة رحيق حياتها رضيعا تفرح به إذا رأت على وجهه النضارة التى سرت من جسمها إلى أجزاء جسمه الذى هو بعض منها يوشك أن يكون مثلها أو أكبر منها... فإن ما يعنيها وتهنأ به وتسعد هو أن تراه يملأ عليها دنياها ويغشيها بثوب العطاء العطاء الجميل... إنه مليكها الذى يأمرها فتطيع وتفرح إذا فرح، وتغضب إذا غضب، وتمرض إذا مرض وتعود إليها بهجتها إذا بل من مرضه وشفى من سقمه... وعادت إلى زهرته ضحكتها الجميلة. ويوم أصبح فتى ممتلئا قوة فإنها سعدت به وامتلأت ثقة فى الغد الجميل الذى ينتظر أسرتها التى سرت فى أعوادها خضرة الحياة، وأزهرت على غصونها ثمار الخير والبركة.

فإذا طرقت بابه لتزوره وتملأ عينيها بنعمة الله البادية فيه ويجتمع أصلها القوى على فرعه الزاهر فإنها بذلك تكون قد طلبت حقا وجب.. ويتحتم اداؤها حقا يعلو فى هذه

اللحظة على صلاة النفل التي كان يصليها.. لذلك فإن ملكه التمييز بين الأعمال الصالحة يجب أن تؤدى دورها... فإن الله يفضل بعضها عن بعض ويقدم بعضها على بعض.. وإذن فقد كان يتعين على دريد أن يستخدم هذه الملكة فى فرز العمل الصالح ويدرك أن الصلاة تخلى المكان والزمان لواجب بر الوالدين فيحب أمه ويحسن استقبالها ويروى غلة الشوق بين جوانحها ويقدم لها قرى الضيف العظيم وبذلك يكون قد أدى لله أعظم صلاة يصليها عابد له وإذا لم بفعل فقد إستحق أن يعامله الله بعدله ويستجيب دعوة أمه عليه.... وفعلا لم يمت حتى رأى وجه البغى التي أسندت إليه ما لم يفعله من فاحشة نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعصمنا ويحفظنا من أنفسنا ومن شرور خلقه أمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه وسلم.

الدرس الثانى

الذى يتلقاه الناس فى كل زمان ومكان من تجربه دريد.

بر الوالدين

جاء فى كتاب روضة الحب فى الله ص١١١

الوالديه: هذه القيمة الكبرى من قيم هذا الوجود.. هذا الأساس المتين فى حياة بنى الإنسان لقد أجرى الله فيها سيال الرحمة ودفء الحنان وجعلها سبب وجود الإنسان وعمارة الأرض، ورد إليها أصل الإنسان ونشأته.

من ظهر الأبوه ينحدر كيانه إلى رحم الأمومة الدافئ الحنون فى أفق حصين، وقرار مكين، حيث اجتمعت كل أسباب الحياه وعناصر التكوين:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١٢- ١٤].

فالأبوة الكادحة العارقة، الصابرة تقتضى نهارها فى الأرض فتبتغى من فضل الله سبحانه وتعالى وتسعى على الرزق فى إصرار لتجمع أسباب الحياة البعيدة تزيح عنها تراب الأرض وضباب السماء... وتكسر عنها الصخر أو تشق عنها غياهب البحر، أو تمخر

عنها ثبج المحيطات. تمتك عنها أستار السماء أو تجذبها من عمق عمق الأرض والسماء.. تقدم من دمها الزكى غذاء لهذا الكائن فى هذه الأحشاء عن طواعية وتلقائية جميلة، تعطيه النضارة، وإن ذوت أعوادها الباهرة وتهبه الحياة، وإن إنطفأت فيها أشعة الحياة. إنها حريصة على الوصول به إلى النضج المرجو لها مهما كلفتها مرحلة التكوين.. لقد زودها الله سبحانه وتعالى بملكات وقدرات تكفل لها بلوغ الهدف.. بنجاح.. وفلاح.. سكب الله فى قلبها الحنان العجيب والحنو الغريب والرحمة المثلى.. وقوة التحمل.

واستودع كيانها كل أسباب العظمة والجلال والجمال حتى تنهض بما كلفها به من عبء إستمرار الحياة وتدفق مواكب الإنسان على مر العصور والأزمان ليشهد الجميع أن لا آله إلا الله الواحد ذو الجلال. وليمضى موكب الإنسانية الهادر فى مسيرته النورانية لتجميل الأرض وتحسين الحياة وتجويد الصنعة وإستنطاقها كلمات الحق والخير والجمال وليباهى الله بالإنسان ملائكة السماء حتى إذا تمت أيام الحمل وآن الآوان لوقت خروج هذا الإنسان إلى الوجود يبعث الله الملك الموكل بالأرحام فيخرجه على ريشة من جناحه ليس له ناب تقطع ولا سن تمضغ... فيجد رزقه فى إنتظاره ينساب من عرقين رقيقين فى صدر أمه يدريان عليه اللبن سائغا حارا فى الشتاء باردا فى الصيف.

وعلى هذا الصدر الحانى تجتمع للطفل أسباب الحياة وتلتحم الأبوة العارقة الكادحة بالأمومة الحانية الرؤم ومن هذا الإلتئام تعرف الإنسانية جلال العطاء وجماله وتتلقى أروع دروس البذل والخصب والنماء وينتج عنه الخير الذى يسعى إليه ركب الإنسانية فى مختلف عصوره متعددة صوره... فإذا أستوى عود الإنسان وقوى بناؤه فقد آن الأوان أن تطالبه السماء بحقوق هذه الوالدية. لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أستودعها أسراره العظيمة وكنوزه الثمينة وهو الذى يعرف قدر هذه الأسرار، ومكانة هذه الكنوز، وخطر هذه الرسالة هو الذى مكن الوالديه من هذا السلطان العظيم والقدرة الفائقة وهو الذى يقدرها ويعطيها حقها فى المكان والمكانة.

فجعل العرفان لها بالجميل فى الدرجة التالية من عبادته سبحانه، فقال فى ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا**

فلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: ٢٣- ٢٤].

لقد شرع الله الذل للوالدين (!!) مع أن الذل لغيره نوع من الشرك الخفي. فالمفروض أن الإنسان لا يذل إلا لله الواحد القهار ولكن إذا كان الذل للوالدين فهذا أمر شرعه الله وأمر به وجعله من القربات التي يسعى بها المؤمن لارضائه عز وجل.

ومن فضل الله ورحمته أن حظيت الأم بالذات بنوع من الرعاية الخاصة، ونعمت بدفقة من رحمة الله عظيمة جعلت سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يواكب وصايا الله سبحانه وتعالى المتوالية وذلك بشروح من أحاديثه الشريفة فترى كأنها النهر العذب الرقراق... وإليك أيها القارئ الكريم هذا الحشد الهائل من آيات القرآن الكريم وكلام الله العظيم التي تنوه بقدر الأمومة وعظمتها... وأفضالها على الإنسانية وعلو شأنها عند الله، ومن أجل ذلك أولاها عناية خاصة واستثناها بتوجيه الإنسان لاحترامها وتوقيرها. قال سبحانه وتعالى﴿وَوَصَّيْنَا الأنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۞ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة لقمان: ١٤- ١٥].

﴿ وَوَصَّيْنَا الأنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥].

وهكذا يوجه الله سبحانه وتعالى اسكوباً جميلا جليلا من أشعة رحمته الفياضه بالحنان إلى الأم لتميزها فى أداء الدرو الذى أسنده إلى الوالديه وباعتبارها تقدم من كيالها أرقى استجابه لأمر الله فى هذا الشأن.

ولننتقل إلى الرافد الثانى العذب الجميل من عناية الله سبحانه وتعالى الخاصة للأم ألا وهو ما صدر عن مركز دائرة الرحمة الآلهية سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم. فنحشد أمامك أيها القارئ الكريم نصوصا من سنته الشريفة تزكى ما قصدناه من معنى جميل.

وروى الإمام البخارى والإمام مسلم أن رجلا سأل رسول الله ﷺ أى الأعمال أقرب إلى الله فقال عليه الصلاة والسلام الإيمان بالله وبر الوالدين.

وجاء أيضا فى صحيح البخارى وصحيح مسلم أن رجلا سأل رسول الله ﷺ من أولى الناس بصحبتى يا رسول الله؟ فقال له رسول الله ﷺ (أمك) فقال له ثم من قال (أمك) فقال ثم من قال (أمك) فقال له ثم من قال (أبوك) وغير هذا من الأحاديث الكثيرة التى ترفع من مكانة الأمومة والأبوة وتجعل من بر الوالدين أفضل عمل بعد الإيمان بالله.

ارتباط البلاء بعلو الدرجة:

إن نعم الله عز وجل متعددة الألوان مختلفة الأشكال فمنها النعم الظاهرة ومنها النعم الباطنة، ومنها النعم الحسية ومنها النعم الروحية، وما بكم من نعمة فمن الله ومن النعم الباطنة الروحية التى حبا الله سبحانه وتعالى عبده دريد أنه هداه إليه وحبب إليه الإيمان وزينه فى قلبه، فطابت له عبادته له، وعذبت له صلاته فخلى قلبه من الآفات وجسده من الشهوات ووجد نفسه فى المحراب. وبغيته فى القيام لله سبحانه وتعالى وقرة عينه فى الصلاة. ومن هنا ذاع صيته، بعد أن وسمه الله بوسمه وفاحت من صومعته روائح وصل الله له عبيرا يملأ الآفاق فيملأ الصدور ليخرج من أفواه الناس ثناء على هذا العبد الربانى.

وفى الطرف الآخر وجدت قلوب غاظها ما نال هذا العبد من مكانة وما وصل إليه من حب الناس له وتحدثهم فيما بينهم عنه حديث الإعجاب والإحترام والتوقير ومنهم هذه البغى التى دفعها شيطان الحقد للإيقاع به فى حبال جمالها لتلقى به فى تنين الخطيئة، وفى أوحال الحمأ المسنون لا لذنب جناه فى حقها ولا لسبق أذى لها من جانبه اللهم إلا طاعته لربه وخالقه ومولاه (!!!).

وآن الأوان لدريد أن يدفع زكاة تفوقه الروحى وسموه النفسى، وحب الناس لـــه، وثنائهم عليه فتعرض لهذا البلاء الجسيم عندما ألصقت هذه البغى تهمة الزنا بـــه وهـــدم الثائرون صومعته وأشبعوه ضربا وتعذيبا. فقابل هذا البلاء بالصبر وإجتـــاز الإمتحـــان بنجاح فنال الجائزة اللائقة بالمتفوقين من أمثاله، فانطق الله سبحانه وتعالى لـــه الطفـــل بكلمات برأته وأفصحت عن الحق الصراح الذى يخلص إلى نصاعه روحه وطهر ثيابـــه. والحقيقة أن هذا البلاء سمة من سمات حياة الصالحين وقد علمنا ذلك سيدنا رســـول الله ﷺ ذلك حيث قال فيما رواه الإمام البخارى والإمام مسلم فى صحيحهما عنه

أنه قال: قال رسول الله ﷺ "خص بالبلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل" وهذا البـــلاء بصورته هذه التى تعرض لها دريد العابد وبنفس الطريقة تعرض له فى الإسلام إمام جليـــل وعلم من أعلام الإسلام وأحد الآئمة الأربعة عالم قريش وإمام مصر سيدنا الإمام محمـــد بن إدريس الشافعى رضوان الله عليه. ذلك أنه لما ذاع صيته وفاح عبير علمـــه هنـــا فى مصر اجتمع شائنوه وحاسدوه على إطفاء سراجه وفض الناس من حولـــه فلجـــأوا إلى وسيلة خسيسة دنيئة تتفق مع طبائعهم التى عرفوا بها عبر التاريخ حيث إنهم من اليـــهود فاستعملوا امرأة بغيا فى إيذائه فانقضت عليه كالحية الرقطاء وهو بين تلامذته ومحبيـــه فى المسجد يلقى عليهم درس العلم يروى قلوبهم الظامئة من رحيق القرآن الكريم والســـنة المطهرة وطالبته بأجر ليلة زعمت أنه قضاها بين أحضانها ونال منها الحرام.

فكأنها ألقت فى المسجد وعلى رأس الشيخ الجليل فرثا مليئا بالأوساخ المنتنة فنفـــر الناس منصرفين عن هذا الإمام الجليل..

وأنت أيها القارئ تقدر حجم هذا الأذى الذى أصاب شيخنا وإمامنا الجليل محمـــد بن إدريس الشافعى الذى رصع ثوبه بدرر العلم منذ أيام صباه وعشق الحقيقة الإيمانيـــة، التى أذابت حرارتها كيانه الذى وهبها اياه!!!

فهو الإمام الفاضل الذى طبعت حروف القرآن على جدران قلبه اســـم الفضيلـــة وأولاده جميعا من عفة وطهر وصفاء ونقاء، وعلو همة، وترفع عن الدنايا وتســـأم عـــن الإسفاف. فلما تعرض لهذا البلاء صبر. ونزل قضاء الله عليه بردا وسلاما ولا غرور فـهو العالم المعلم للناس كلام الله سبحانه وتعالى وهدى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليـه

وعلى آله وصحبه وسلم. صبر واحتسب إلى أن أصيبت هذه المرأة بمرض أكل جسمها ونال من كيانها فأقرت أن هذا المرض ليس إلا انتقاما من الله لعبده محمد بن إدريس الشافعى جزاء هذه الفرية التى افترتها عليه فأعلنت ذلك أمام الناس التأمت نفس الشيخ الجليل وحمد الله عز وجل على هذه البراءة التى سعدت بها روحه وصفت به نفسه وعادت إليه وسط الناس مكانته.

وإطمأن بذلك على إيمانه بالله رب العالمين.

الدرس الثالث:

كرامات الأولياء حق

رأيت يا أخى كيف أن الله تبارك وتعالى قد انطق الطفل الوليد فى المهد ليعلن براءة عبده دريد عمل خارق يصدم الجموع الثائرة على هذا العبد الصالح صدمه كهربائية تفاجئهم فتصد ثورتهم وتتغلب على أمواج هذه الثورة داخل عروقهم فى دمائهم الهادرة أنها تحول مجرى هذا الطوفان الهادر عن موضوع التهمة التى حاولت هذه البغى أن تلصقها بدريد إلى هذه الكلمات التى صدع بها الطفل قبل أوان نطقه.

حلت الدهشة محل الغضب، والتعجب محل الإحتجاج فلما تيقنوا أن الطفل أجلب دريدا عن سؤاله نزلت كلمات هذه الإجابة على قلوبهم بردا وسلاما أطفأ نار الثورة العارمة التى أحرقت لدريد صومعته ومتاعه... وعاد لهم الإعجاب بصلاح دريد وتقواه ولاموا أنفسهم أن تسرعوا إذ أصابوا بإعصارهم جلد دريد وجسمه.

أليس فى نطق هذا الطفل خرق للعادة؟!!

بلى فإن الطفل فى هذه اللحظة التى نطق فيها وأجاب دريد على سؤاله مقرا إنه ابن الراعى فلان كان وليد ساعات لم يعهد فيمن هو فى مثل سنه أن يتكلم.

لكن الله الذى تكفل بالدفاع عن عباده الذين أمنوا منح الطفل قدره النطق ليعلن حقيقة مصدر نطفته التى خلق منها فغسل الدرن عن جسم دريد وعن ثوبه.

لقد كان عائد هذه الكلمات على دريد نفسه إن إزداد يقينه فى الله وإطمأن على صلته بربه فأيقن أن الله يحبه ويقبل عليه إقبال رعايه له وحماية تكفل صد كل إعتداء يقع عليه.هذا سند للقائلين بكرامات الأولياء.

فإن الله سبحانه بفضله وكرمه وإحسانه وجوده يمنح أولياءه عطايا من لدنه، ونفحات من عنده يميزهم بها على كثير من الناس، وقد أوضح الله سبحانه وتعالى ذلك فى القرآن الكريم فقال ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [سورة يونس: ٦٢- ٦٤].

على إننا لا نترك هذا النبأ لغيره من أنباء الناطقين فى المهد دون أن نلقى ببعض الضوء على موضوع كرامات أولياء الله الصالحين لعل الله سبحانه يهدينا إلى كلمة الحق فى هذا الموضوع الجليل وثبت قلوبنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

والكلام فى هذا الموضوع يقتضى تقسيمه إلى فرعين:

الفرع الأول: يتحدث عن الولاية والولى.

الفرع الثانى: كرامات الأولياء.

الفرع الأول

من هو الولى:

وللتعرف على الولى فى الناس نلجأ إلى القرآن الكريم فنجد أن الله سبحانه وتعالى عرف هذا النوع الممتاز من البشر فقال ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [سورة يونس: ٦٢- ٦٤].

الحديث القدسى

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله سبحانه وتعالى:

" من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته وإن استعاذ بى أعذته" صدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أبلغنا عن ربه.

أما القرآن فقد عرفهم تعريفا جامعا مانعا حيث يقول ﴿ **أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ** ﴾ [سورة يونس: ٦٢- ٦٣]. فقوله (آمنوا) إشارة إلى كمال القوة النظرية وقوله كانوا يتقون إشارة إلى كمال القوة العلمية. وفيه مقام آخر. وهو أن يحمل الإيمان على مجموع الإعتقاد والعمل.. ثم يتصف الولى بأنه كان متقيا فى الكل أما أن التقوى فى موقف العلم فلأن جلال الله أعلى من أن يحيط به عقل البشر، فالصديق إذا وصف الله سبحانه وتعالى بصفه من صفات الجلال فهو يقدس الله تعالى عن أن يكون كماله وجلاله مقتصرا على ذلك المقدار الذى عرفه ووصفه به.

وإذا عبد الله تعالى فهو يقدس الله تعالى عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه فقدره بذلك المقدار. فثبت أنه أبدا يكون فى مقام الخوف والتقوى ومن هذا يتبين أن الولى يتميز بين الناس بدرجة عالية فى الإيمان ودرجة عاليه فى التقوى وأما ما ورد فى الحب المقدس فإننا نميل إلى ما جاء كتابنا روضة الحب فى الله ص٢٩ وما بعدها الحديث الشريف فى تعريف الولى:

روى الإمام أبو داود عن سيدنا عمر رضى الله عنه قال: قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم" إن من عباد الله ناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى". قالوا يا رسول الله أخبرنا من هم؟ قال:" هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فو الله أن وجوهم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس. قرأ هذه الآية "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

ومن هذا يتبين أن الولى يملأ قلبه الحب فى الله وأما صاحب الرسالة القشيرية وهـــو العالم الجليل العارف بالله أبو القاسم القشيرى فقد أورد فى رسالته هذا التعريف:

" الولى له معنيان: أحدهما: فعيل بمعنى مفعول وهو من يتولى الله سبحانه أمره. قـال الله تعالى" وهو يتولى الصالحين" فلا يكله إلى نفسه لحظة بل يتولى الحق سبحانه رعايتـه. والثانى فعيل صيغة مبالغة من الفاعل وهو الذى يتولى عباده الله وطاعته فعبادته تجـــرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان. وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولى وليـــا: يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستبقاء ودوام حفظ الله تعـــالى إيـــاه فى السراء والضراء. أما الإمام الفاضل الحكيم الترمذى وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بـــن على بن الحسن الحكيم الترمذى فيقول فى كتابه ختم الأولياء. فى الفصل السادس تحـت عنوان" ولى الله".

وأما ولى الله: فرجل ثبت فى مرتبته واف بالشروط كما وفى بالصدق فى مســـيرته، وبالصبر فى عمل الطاعة واضطراره فأدى الفرائض، وحفظ الحدود ولزم المرتبة حتى قـوم وهذب ونقى وأدب وظهر وطيب ووشى وزكى وشجع وعوذ فأتت ولاية الله له بهـــذه الخصال العشر.

ولعلك أيها القارئ الكريم بعد استعراض هذه الأقوال تجد أنها جميعا لا تخرج عـــن المعنى الوارد القرآن الكريم فى شأن تعريف الولى وهو يقوم على صرحين همـــا الإيمـــان والعمل.

وقديما قال سيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم:

" ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل. والأولياء على هـــذا النحو لهم وظائف تقتضى وجودهم فى كل عصر من العصور حتى تقوم الســـاعة فأمـــا هذه الوظائف فقد أوضحها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آلـــه وصحبـــه وسلم.

" لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناوأهم إلى قيام الســـاعة متفق عليه.

وقال الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنـــه" اللـــهم لا تخـــل الأرض من قائم لك بحجتك أولئك الأقلون عددا. والأعظمون عند الله قـــدرا قلوبهـــم معلقة بالمحل الأعلى أولئك خلفاء الله فى عباده وبلاده آه وشوقاه إلى رؤيتهم!!!!.

ومن هذا يتبين أن هؤلاء الأولياء لهم وظائف أولاها القدوة: فإن القـــدوة تحفـــظ المنهج السلوكى وهو هنا القرآن والسنة ويؤم الناس بهما فيتحقق لمسيرة الإنسان الأمـــن والأمان.

ثانية الوظائف: التربية فهم يربون الناس على الكتاب والسنة فتستقيم ســـلوكياتهم وتطيب حياتهم.

وثالثة الوظائف هى الإستمرارية الحتمية لمبادئ الدين الحنيف وهذا يكفل وهـــذا يكفل السعادة للبشر جميعا إذ به يتحقق السلام وفى ظله تنمو الحضارة.

وفى ختام التعريف بالولى والولاية نردد ما قاله الإمام العظيم والعالم العارف بـــالله سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه لطائف المنن

واعلم أن ولاية الله تتضمن النفع والدفع: أما النفع فمن قوله:

﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ [سورة يونس: ٩٨].

ومن قاله: فلم يكن ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا "

فمفهومه أن الإيمان ينفع المؤمنين ولو عند رؤية البأس وكذلك قوله:

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْـــلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٨].

فمفهومه إذا كانت مؤمنة من قبل نفعها بإيمانها وأما الدفع: فمن قوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة الحج: ٣٨]، وتتضمن النصر لقـــول الحق ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: ٤٧].

وتتضمن النجاه: لقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٨].

انتهى كلام سيدى ابن عطاء الله.

ومن هذا نستطيع أن نصل إلى تعريف الولى بأنه المؤمن بالله ورسوله وملائكته وكتبه وباليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره ويلتزم بطاعة الله ورسوله ﷺ على كتاب الله وسنة رسوله والمحب لكل المسلمين.

الفرع الثانى

الكرامات فيما بينه وبين الناس.

إن الكرامة عمل خارق للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يدى الولى أو على يدى غيره من أجله بحيث يؤلف به بينه وبين الناس. ومثل هذه الكرامات جائزة فى حق الأولياء وسند ذلك من القرآن الكريم ما هو وارد فى وقائع حياة الصالحين من عباد الله رجالا كانوا ونساء

فأما الرجال فمنهم

آصف بن برخياء صاحب نبى الله سليمان عليه السلام حيث أتى بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه وفى ذلك قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة النمل

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النمل: ٤٠].(صدق الله العظيم)

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره

قال ابن عباس: هو آصف بن برخياء كاتب سليمان وكان صديقا يعلم الاسم الأعظم وقد دعا الله بدعاء خاص فاستجاب الله الدعاء فوجد سيدنا سليمان العرش (عرش بلقيس) أمامه.

وفى هذه الكرامة طى للزمان والمكان يسره الله سبحانه كرامه لهذا العبد الصالح اصف بن برخياء.

ومن ذلك أيضا ما حدث للسيدة الفاضلة مريم بنت عمران أم نبى الله عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حيث كانت تصلى فى المحراب وتقوم على خدمة بيت الله فتأتيها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء فسألها سيدنا

زكريا عليه السلام " كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا ؟! قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب سورة آل عمران آية٣٧

٣- ما جرى على يد الخضر رضى الله عنه فى صحبته لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام من أعمال خارقة .جاءت وقائعها فى سورة الكهف من الآية رقم ٦٠ إلى الآية رقم ٨٢

٤- قال سيدنا أبو بكر لأم المؤمنين السيدة عائشة أبنته وزوج سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فى مرض الموت وزوجته حامل.

إنما هم أخواك وأختاك وبطن خارجه أراها جارية فأخبر بأن فى بطن امرأته جارية وكان كما قال رضى الله عنه (لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى).

٥- مخاطبة سيدنا عمر لساريه قائد جيش المسلمين فى الشام حيث كان يخطب الجمعة فنقلت له صورة جيش المسلمين يوشك أن يحيط به الأعداء فناداه من فوق المنبر فى المدينة يا سارية الجبل.. الجبل فسمعها سارية وهو بالشام وعرف أن قائده يأمره بأن يصعد مع جنده الجبل فيرمى الأعداء من فوقه وصدع سارية لأمر أمير المؤمنين وحقق الله له النصر.

٦- دخل رجل على أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفاف وكان قد نظر إلى محاسن امرأة فى الطريق وهو قادم عليه فقال له" ما بال أحدكم يدخل علينا وأثار الزنا فى عينيه فقال له أوحى بعد رسول الله ﷺ : لا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلل: اتقو فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله.

وهذه الواقعة تصديق لهذا الحديث ثم هى تصديق لحديث أخر جاء فى البخارى قال: قال رسول الله ﷺ :

" إن الله قد كتب على كل ابن أدم حظه من الزنا أدركه ذلك لا محاله".

فالعين تزنى وزناها النظر

والأذن تزنى وزناها السمع

واليد تزنى وزناها السعى

والفرج يصدق ذلك ويكذبه.

أما سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجه ورضى الله عنه فإن ما جرى على يديه من كرامات له العجب العجاب كما قال ابن عطاء الله السكندرى فى كتاب لطائف المنن: ارجف بالكوف أن معاوية ابن أبى سفيان قد مات فقال رضى الله عن إذا بلغه ذلك والله ما مات ولن يموت حتى يملك ما تحت قدمى هاتين. وإنما أراد ابن هند أن يشيع ذلك حتى يستثير على فيه فمن يؤمئذ كاتب أهل الكوفة معاوية وعلموا أن الأمر صائر إليه.

وإذن فلا غرابة فى تحقيق الكرامة لأى ولى من أولياء الله تعالى فإنما منح من الله القادر عليها الكريم الذى يكرم عباده بما يشاء.

واختتم هذا البحث بما ورد فى كتاب لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى طبعة دار الشعب ص٧٩ وما بعدها:

أمور تسهل عليك الإيمان بكرامات أولياء الله وإن لا تستكثرها عليهم : الأول: أن تعلم أن قدرة الله التى لا يكبر عليها شئ هى التى أظهرت الكرامة فى هذا الولى فلا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة الله جحود الكرامة لولى جحد للقدير وعمى منعك من شهود ظمة وصفه سبحانه وتعالى.

الثانى: أنه ربما كان سبب إنكار الكرامة استشكثارها على ذلك العبد الذى أضيفت إليه وذلك العبد إنما أظهرت الكرامة عليه شهادة بصدق طريق متبوعه فيهى بالنسبة إلى من ظهرت عليه وهو ذلك الولى كرامة وهى بالنسبة إلى من ظهرت بركات متابعته بمعجزة.

فلذلك قالوا:

كل كرامة لولى فهى معجزة لذلك النبى الذى هذا الولى متبع له فلا تنظر إلى التابع ولكن انظر إلى عظيم قدر المتبوع

الثالث: أن تعلم أن الذى أعطاه الله سبحانه لأوليائه من الإيمان واليقين مما أنت بصدق به ومثبت له اعظم مما استغربته وأنكرته فمثلك إذا استغربت ذلك على المؤمن كمثل من يستغرب على عبد خواص الملك اعاه الملك سفطا (وعاء يعبا فيه الطيب)

مملوءا ياقوتا ثمينا علمت أنت به كل ياقوته تضمنها ذلك اسخط تساوى عشــــرة آلاف دينار ثم قال ذلك العبد الذى هو من خواص الملك أو قيل عنه أن الملك قد أعطاه مائـــة دينار فاستربت أنت ذلك فهل يستغوب استغرابك هذا ذو فهم ولب وما أكرم الله تعالى العباد فى الدنيا والآخرة كرامة الإيمان به والمعرفة بربوبيته لأن كل خير من خيور الدنيـــا والآخرة إنما هو فرع الإيمان بالله من أحوال ومقامات وأوراد وواردات.

وكل نور وعلم وفتح وتعوذ إلى غيب وسماع ومخاطبة وجريان وكرامة وما تضمنته الجنة من حور وقصور وانهار وثمار وكان به أهلها فيها من رضى عنه الله ورضى مــن الله ورؤية الله فكل ذلك إنما هو نتائج الإيمان ووجود أثاره وإمداد أنواره. جعلنا الله وإيـــاك من المؤمنين بربوبيته الإيمان الذى رضيه لخاصة عباده .

وبسطنا وإياك بالتسليم له فى مراده.

انتهى كلام سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه.

وعلى ذلك فالكرامة نعمة من نعم الله عليه وليست من صنعه إنما هى مـــن صنـــع الله.

فمن اقر بها فقد اعترف لله بالقدرة وللولى بالقرب من الله ومن أنكرهـــا فإنـــه فى حاجة إلى قرب من الله يزيد إيمانه به إن الله سبحانه وتعالى قد ميز بين الذين يعلمـــــون والذين لا يعلمون.

وميز بين الذين يعملون الخير وبين الذين لا يعملون الخير زكى الله العلماء فقـــلل فى (سورة آل عمران) **﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُـــواْ الْعِلْـــمِ قَآئِمَـــاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾** [سورة آل عمران: ١٨].

وقال: إنما يخشى الله من عباده العلماء.

وزكى العاملين بقرانه العابدين له والشاكرين لفضله **﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَـــلاً عَبْـــدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَـــلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾** [سورة النحل: ٧٥].

فلا غرو إذا اكرم الله أولياءه وحباهم بأنواره وجعل لهم نورا يمشون به فى النـــاس تمييزا لهم عن عبيد الدنيا ورقيق الشهوات

إذا أن الأولياء نهضوا لخدمة ذى الجلال والإكرام فاستحقوا رضوان الله وإكرامـــه وتكريمه وإحسانه

قال تعالى فى سورة النمل آية ٩٧

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّـهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النمل: ٩٧].

صدق الله العظيم

رضيع أمه

من بنى اسرائيل

قال:"اللهم لا تجعلنى مثله

مشيرا إلى الرجل المتكبر

وقال:"اللهم اجعلنى مثلها

على الفتاة البريئة

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[سورة هود : ١٥ ، ١٦]

المشهد: كما رواه الإمام مسلم:

يحكى لنا سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم المشهد الذى تضمنت لوحته الرائعة الكلمات التى نطق بها رضيع أمه من بنى اسرائيل كالآتى:

بينما صبى يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنه فقالت أمه:

" اللهم أجعل ابنى مثل هذا...

فترك الثدى: واقبل إليه فنظر إليه فقال:

اللهم لا تجعلنى مثله!!!

ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع قال راوى الحديث:

فكأنى انظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى إرتضاعه بإصبعه السبابة فى فمه فجعل يمصها.

قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت؛ وهى تقول حسبى الله ونعم الوكيل فقالت أمه:

اللهم لا تجعل ابنى مثلها.

فترك الرضاع ونظر إليها فقال:

اللهم أجعلنى مثلها

فهناك تراجعا الحديث فقالت حلقى

مر رجل حسن الهيئة فقلت اللهم اجعل أبنى مثله

فقلت:

اللهم لا تجعلنى مثله!!!

ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون:

زنيت سرقت.

فقلت: اللهم لا تجعل ابنى مثلها.

فقلت: اللهم اجعلنى مثلها:

قال: إن ذاك الرجل كان جبارا فقلت!

اللهم لا تجعلنى مثله.

وإن هذه يقولون لها: زنيت و لم تزن

وسرقت و لم تسرق.. فقلت اللهم أجعلنى مثلها .(صدق سيدنا رسول الله)

هذا المشهد الرائع الذى تضمن المفاجأة.. التى أدهشت الأم وهى أعلم النـــاس بالحالة التى عليها وليدها...

وحسب المجرى العادى للأمور.. وطبيعة الأشياء فإن الطفل هنا لا ينتظر منـــه التعبير بالكلام...

إذ أن انتظار ذلك منه سابق لأوانه..

فهو فى مرحلة من أيام طفولته يكون فيها الطفل عادة عاجزا عـــــن التعبـــير بالكلام...

والمفاجأة هنا أنه لم يقتصر على الكلام فقط بل أن هذا الكلام نم عن فكـــــر سابق لأوانه أيضا...۰۰۰۰

فالكلام قد كشف عن فلسفة حياة كما تصورها..أنه موقف..بـــــنى علـــى أسس متينه من الحكمة...والتأني في الحكم على الأمور..

أنه نظر ثاقب في قياس الشخصيات؛وميزان حساس في وزن الناس..

أنه معيار دقيق.. فى تحديد قيمة الشخصية نطقت بها لهاة الطفل الرضيـــــع .. وهذا ما يصيب الناس بالدهشة.

وتتناول ما جاء بهذا المشهد الرائع من دروس فى مبحثين.

- المبحث الأول: ويتحدث عن الحكمة الظاهرة من كلمات الطفل.

وأما المبحث الثانى فإنه يتناول موقف المسلم من الدنيا... كما حدده كـــــل من القرآن والسنة.

المبحث الأول

حكمة الطفل الظاهرة من كلماته

كون الطفل الصغير فى المهد ينطق معبرا عن أشياء.. صغيرة تتناسب ومرحلته المبكرة. شئ.

وكونه يعبر عن معان عالية ومثل عالية.. وقيم رفيعة.. شئ آخر...

والطفل لم يعبر هنا عن حاجته للغذاء أو ألمه من لذعة حشرة إنما هو عبر عن حكمة... وعن بصيرة نافذة استطاع بها أن يحكم على معانى الحياة الحكم الصحيح.

وهذا هو موطن الدهشة التى تصيب الإنسان الذى يتلقى واقعة مثل هذه الواقعة لأول مرة...

إن الرجل الذى مر على أم الطفل وملأت عينها من شارته الحسنة... وأخذت بدابته الفارهة عكس مظهره صورة الحياة الرغدة التى يحياها... ونم عن الرفاهية التى يعيشها...

وأوضح المكانة التى يتمتع بها فى قومه.....

والأم عندما ترزق بطفل تطير بأحلامها فى الآفاق وتنتقى من بين المراكز الإجتماعية أرقاها لوليدها الصغير.. وتنتقى له من بين العرائس أجملها لتكون له زوجة.. ومن بين الأموال الذهب والماس ومن بين الحيوات أسعد حياة....

فعندما رأت هذه الأم ذلك الرجل قد ظهرت عليه علامات الأبهة الباهرة... وآثار النعمة الوافرة .

تمنت لوليدها.. أن يكون مثل الرجل.....

لكنها عند تقييمها لهذا الرجل المتسربل بالنعمه لم تكن تحكم على الناس الحكم الصحيح.

ذلك لأن هذه المظاهر التى تزينا بها الرجل كانت تخفى وراءها حقيقته البشعة وهى أنه جبار والتجبر وصمة شنيعة تصم الإنسان فتحيله إلى شئ آخر غير الإنسان... تجرده من صفة الإنسانية وتجعله ضمن الوحوش الكاسرة ألم ترى أن الله سبحانه وتعالى قد سرد عيوب قوم من السابقين وعندما فعل ذلك ركز على هذه الصفة التى تجمع كثيراً من قبائح الفعال، ودنى الخصال.. وأسوأ الرذائل فقال فى حقهم.

" وإذا بطشتم بطشتم جبارين"

وألهم الله هذا الطفل الرضيع واكتشف بنور الله ثعبان التجبر الكامن فى شخصيه هذا الرجل الذى انبهرت أمه بمظاهره.

ولما سألت الله عز وجل أن يجعل وليدها مثل هذا الرجل رفض الطفل أن يكون بداخله ثعبان التجبر.

فلما مر قوم آخرون ومعهم فتاة... يجرعونها الذل والهوان... ويلصقون بها التهم بغيا وعدوانا ويقذفونها بالزنا وهو كان فاحشة وساء سبيلا ويرمونها بالسرقة وهى جريمة ماسة بالشرف ومسقطه للاعتبار... وهى تـرد عن نفسها هذه الإتهامات. وهم يوسعونها ضربا وركلا... متجردين من الرحمة، مدفوعين بالوحشية الضارية دعت الأم الله ألا يجعل وليدها مثلها.

لكن الطفل يواصل انتصاراته الروحية ومكاشفاتة النورانية. فقد أنار الله بصره وبصيرته وكشف له صفاء سريرة هذه الفتاة المظلومة ونقاء ساحتها من هذه الجرائم التى يحاولون إلصاقها بها دون شفقة.. فعلم أن مكانتها عند الله سلامته...

وأن درجتها فى الصالحات عالية..

فطلب من الله أن يكون مثلها

ولما طلبت أمه منه تفسير موقفه فى الحالتين قال لها.

"إن ذاك الرجل كان جبارا فقلت اللهم لا تجعلنى مثله...

وأن هذه يقولون لها زنيت و لم تزن وسرقت... و لم تسرق فقلت اللهم أجعلنى مثلها:

يقصد طبعا أن يكون مثلها فى البراءة والطهر وأن يتمتع بمكارم الأخلاق.. وأن يحوز بذلك رضا الله.

ولا يقصد أن يتعرض للعذاب الذى عانت منه هذه الفتاة.

والفرق بين نظرتى الأم والوليد

هو أن الأم رأت زينة الدنيا وبهرجها على الرجل فخدعت بها وطلبتها.. لوليدها

وإن الوليد كشف الله له أنوار الفضيلة فى الفتاة فطلبها لنفسه..لأنها الإيمان، لأنها الدين الذى ارتضاه الله للناس أجمعين.

والناس فى واقع الحياة لا يخرجون عن هذين النوعين:

نوع يحب الدنيا ويتعلق بها ويجد فيها نفسه ونوع يحب الدين ويتعلق فيه ويجد فيه نفسه.

وهذا هو الذى زكى الله سعيه... وبارك قصده... ورصد له الجزاء الحسن.

الصنف الأول:

هذا الصنف مغرم بالدنيا... هائم فى حبها ساع فى تحقيق حيازته لعناصر زينتها... من المال والولد... والثمرات.

وقد قرر الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم حيث قال:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤].

ماذا سيجنى هذا الذى قصر حبه على الدنيا... وبالتالى قصر سعيه على تحقيق نفسه فيها.. وتحقيق ذاتها من خلالها دون أن ينظر إلى ما وراء ذلك من حساب:

يبصره الله سبحانه فى القرآن الكريم بحقيقة هذه الدنيا وقصر أجلها... ويضع يده على مواطن الضعف فيها وعناصر الفناء: فيقول

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِب وَلَهْو وَزِينَة وتَفَاخُر بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُر فِي الأَمْوَال وَالأَولاد كَمَثَل غَيْث أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وفِي الآخِرَة عَذَاب شَدِيد وَمَغْفِرَة مّن الله ورِضْوَان وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا متاع الْغُرُور ﴾ [سورة الحديد: ٢٠].

ثم يبين طبيعة الدنيا أيضا **﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾** [سورة الكهف: ٤٥].

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاة الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَت الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة يونس: ٢٤].

وهنا ابرز الله صفة الفناء اللصيقة بالدنيا.

ونطرح السؤال مرة أخرى:

ماذا الذى يجنى الذى أحب الدنيا وعمل لها فقط...

وركز جهده فى حيازتها و لم تعتقد أنه مغادر إياها وتارك لهـــا حتمـــا.. و لم يدرك حقيقة فنائها وزوالها: هؤلاء.. يحدد الله ما يحصلون عليه تحديدا نافيا لكـــل جهالة فيقول:

فى الدنيا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة هود: ١٥- ١٦].

فهم فى الدنيا لا يحرمهم الله ما داموا يأخذون بالأسباب التى جعلها الله قانونـا من قوانينه فى الدنيا... فهم يحققون نجاحا اقتصاديـــا... وانتصـــارا عمليـا.. ويستكملون أسباب الزينة ويتكيفون مع ظروفها..

فى الآخرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة يونس: ٧-٨].

الأسباب:

إن تركيز الإنسان اهتمامه على جمع حطام الدنيا من مال وزينـــة بـــأمراض خلقيه:

١- الطغيان:

﴿ كَلا إِنَّ الأنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [سورة العلق: ٦-٧].

٢- الكبر والغرور:

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الأخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ

الْمُجْرِمُونَ ۞ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ ۞ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ۞ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة القصص: ٧٦- ٨٢].

ويعقب الله سبحانه وتعالى على هذه الأحداث فيقول **﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾** [سورة القصص: ٨٣].

هذه الآيات ترينا بجلاء نفس المشهد الذى تكلم الوليد الرضيع.. فى شأنه:

إن قارون خرج فى زينته...

وكان رد الفعل على أصحاب النفوس الضعيفة هو انبهارهم بمنظره... فقالوا مثلما قالت أم الرضيع يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون.. أنه لذو حظ عظيم ذلك لأنهم حرموا من النظرة الثاقبة... فعيونهم لم تتعد ظاهر قارون. و لم تستطع كشف حقيقته ولكن أولى العلم... وأصحاب البصائر النافذة قالوا ما قاله الطفل الوليد...

ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون.

الصنف الثانى وهو السعيد:

من عرف حقيقة الدنيا وأبصر ما وراءها فى الدار الآخرة وعرف أن الدار الآخرة هى الحيوان... وهى البقاء والخلود فعمل لها وسعى من أجل الحصول على نعيمها فهذا الصنف زكاه الله سبحانه وزكى سعيه فى القرآن الكريم: **﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾** [سورة الإسراء: ١٩].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [سورة الشورى: ٢٠].

تجارة أهل الآخرة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الصف: ١٠-١١].

ويسجل القرآن الكريم فرحه وسروره إذا حاز شيئا من حطام الدنيا... من مال... وزينة...

وحزنه إذا فقد شيئا من ذلك:

ثم يتابع تسجيل سوء تصرفه فى هذا المال والخروج به عن وظيفته فى الحياة... من صلة الفقراء وإكرام الأيتام ومعالجة الأزمات التى تحتاج بعصفها المساكين...

ويصور إقبال الإنسان على هذا المال؟ المعهود فيه الذى لا يشبع...

ثم يجذب عنق الإنسان جذبة شديدة.. ليرى المصير المحتوم لهذه الدنيا... ويبصر بعين قلبه مشهدا تتجلى فيه حقيقة الفناء بارزة للعيان... ثم مشهدا آخر يلقنه به درسا فى المعرفة... يخرج منه وقد أدرك الحكمة... ورآها بضوءها... وجلالها. وكل ذلك فى ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ * يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [سورة الفجر: ١٥- ٣٠].

أهل الآخرة هؤلاء نسبهم الرحمن إليه وحدد أوصافهم فى القرآن الكريم فى ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا

يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُـونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ❁ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ❁ إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَـيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ❁ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ❁ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ❁ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّـرُوا بِآيَات رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ❁ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِـنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ❁ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَـا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ❁ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًـا ❁ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًـا ﴾ [سورة الفرقان: ٦٣- ٧٧].

هذه ملامح الآخرة المؤمنين بها العاملين لها...

ومن حكمة الله عز وجل وواسع رحمته بخلقه أنه جلى لنا حقيقة هؤلاء من أهل الدنيا وهؤلاء من أهل الآخرة وبين طبيعة تلقى أهل الدنيا لنعمة الله...

وطبيعة تلقى أهل الآخرة لهذه النعمة.

فأما أهل الدنيا فإنهم يتلقون النعمة على أنها ميزة لهم يتميزون بها على النـاس ويتعاملون بها على خلق الله.

لكن أهل الآخرة يتلقون هذه النعمة على أنها فضل من الله... إن شاء منحه وإن شاء منعة وحصاد كل منهما لرؤيته يتضح فى قصة الصاحبين فى سورة الكهف التى تحكى آياتها نبأ هذين الصاحبين فى الآيات من ٣٢ إلى ٤٤ فتقول:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَـا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ❁ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِّنْـهُ شَـيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ❁ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ❁ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَـدًا ❁ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْـهَا مُنقَلَبًـا ❁ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَـةٍ ثُـمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ❁ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ❁ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْـتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَـالاً وَوَلَـدًا ❁

فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [سورة الكهف: ٣٢-٤٤].

لقد جنى صاحب الجنتين المسكين ثمرة تصوره الخاطئ فقد الجنتين وفقد معهما الفئة من أصحابه الذين كانوا يتملقونه وينافقونه لأنهم لم يكونوا يحبونه هو وإنما كانوا يحبون ماله....

فلما فقد المال فقدهم معه " و لم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا....

قال الله سبحانه وتعالى فى ﴿ فَإِذَا مَسَّ الأنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٤٩- ٥٢].

فهذا الفريق يتلقى الدنيا وهو يشعر أنه مستحق لها بما يتميز به من تفوق فى العلم ولا يعلم أنها إمتحان من الله له.

المبحث الثاني

موقف المسلم من الدنيا

حتى يفهم الناس قصدنا... وما نعنيه من هذه الكلمات فهما صحيحا.

لابد أن نشرح موقف المسلم من الدنيا...

وحتى يكون هذا الشرح موضحا على قدر الطاقة فإننا ينبغى أن نرجع إلى القرآن الكريم وإلى السنة المطهرة فنتبين منهما: تصور المسلم لحقيقته هو نفسه من هو... وأين موقعه؟

ثم تصور المسلم للدنيا وما فيها من متاع وفهمه لحقيقتها. ثم استعماله لها ووجوه هذا الاستعمال...

ومراقبة المسلم لله فيما أعطاه...

المسلم يعرف نفسه:

فالمسلم يشعر أنه عبد لله عز وجل.. صاحب دعوة، مكلف بالقيام بأعبائها التزاما بأداء واجباتها فى نفسه وأهله وولده وماله...

ثم هو مكلف بأداء هذه الأمانة فى مجتمعه الذى يعيش فيه..

ويعلم أيضا أن حياته على هذه الأرض محدودة ولها أجل مسمى.. بعده يواصل رحلته إلى الله عز وجل... حيث يمثل بين يديه للحساب فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ ۞ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۞ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ ۞ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۞ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۞ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [سورة الحاقة: ١٩- ٣٤].

فأما أنه عبد الله:

فإن المسلم يدرك هذه الحقيقة جيدا لأنه على يقين من أنه مخلوق لله مربوب له... فتبارك الله رب العالمين... وقد صدعت بهذه الحقيقة أولى الآيات نزولا فى القرآن الكريم:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الأنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الأنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [سورة العلق: ١- ٥].

والإدراك الثانى:

الذى يلى هذا الإدراك هو أن المسلم صاحب دعوة... ووارث لواء هذه الدعوة... وهذه الدعوة هى الإسلام... ورثة عن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما الإدراك الثالث :

فهو أن المسلم يعرف أن الدنيا بما تحويه من مال، وولد، وزينة، ومتاع.. إنما هى نعم وهبها الله له من فضله عز وجل ودون أن يلزمه بذلك أحد.

والإدراك الرابع:

أن الله سبحانه وتعالى مستخلفه فى ذلك كله فناظر كيف يعمل به... أى أنه فى كل ذلك راع ومسئول عن رعيته.

بقى أن نفتح المصحف الشريف لنملأ أعيننا بآيات القرآن الكريم التى تزرع هذه الحقائق فى القلب فتنبت من الثمرات.. ثمرات العلم والحكمة ما تقر به أعيننا...

أما خلقه وموته وبعثه فقد ذكرتها الآيات ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١٢- ١٦].

وأما المسلم صاحب دعوة فقد قال الله تعالى فى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ

﴿الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠].

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤-١٠٥].

وقال تعالى فى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنسَ إِلا لِيَعْبُدُون ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦- ٥٨].

أما نظرة المسلم إلى ما بين يديه من نعم الله من حيث أنها فضل الله عليه دون أن يلزمه به فقول الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم هو الذى يدله على ذلك ويسقى قلبه برحيق اليقين: فى الآيات الآتية:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [سورة النحل: ٥٣].

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [سورة لقمان: ٢٠].

وقال ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٢- ٣٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: ١-٤].

وأما بالنسبة لطعام الإنسان فإنه نعمة الله من فضله قال تعالى ف ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [سورة عبس: ٢٤- ٣٢].

وقال ف ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل: ٦٦- ٦٩].

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة النحل: ١٤].

كذلك ف سورة النحل يمن الله على الإنسان بنعمة البيت يأوى إليه والثوب يلبسه يحفظه من برد وحر.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [سورة النحل: ٨٠].

وأما اللباس:.. ما يستر العورة من الإنسان ويبدى زينته فقد من الله به على الناس وأظهر لهم أنه المنعم به عليهم:

فقال سبحانه وتعالى ف ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٦].

وأما نعمة الدين: فهى أرقى النعم وأعلاها وأسماها عند رب العالمين... فهى أيضا فضل الله على العبد فالمؤمن يقر بهذا ويعرف أنه لولا فضل الله ما كان اهتدى إليه ولا عرف الإسلام...

والدليل فى قول الله عز وجل فى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣].

وهذه خاصية من خصائص المؤمن فإنه يرى يد الله ممدودة إليه بالفضل والنعمة قبل أن يرى هذه النعم.. فيبادر على الفور بحمد الله عزو جل... ثم هو يتعامل مع هذه النعم من خلال شعوره التام بأن هذه النعمة امتحان من الله وألها تلقي على كتفيه مسؤلية المحافظة عليها ..وتنميتها..وحق غيره فيها..

تعامل المسلم مع الدنيا.

مع إدراك المؤمن لحقيقة الدنيا ...مع ألها متاع الغرور وألها مهما طال أجلها...فلابد أن تتجرد من ثياب زينتها... وألها فانية حتما بحتمية القضاء والقدر؛ ومع يقين المؤمن بأن أيامه فيها معدودة ... وإقامته فيها محدودة .. وأنه لابد يوما مفارقها وذاهب إلى الله عز وجل وذلك من قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الأنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [سورة الانشقاق : ٦] .

فهو يقبل عليها فى حذر وفى ضوء قول الله عز وجل فى

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الاعراف : ٣١-٣٢]

فالمؤمن لا يخاصم الدنيا ولكنه يتعايش معها بمعنى أنه لا يتركها تتملك نفسه وتشغل باله ولا يمتنع عن الطيبات من خلالها.. يستمتع بها ... راضيا مرضيا ، وهاديا مهديا .. مشرق النفس ، مضئ القلب .. لسانه دائما رطب بذكر الله وحمده والثناء عليه ..

وعلى ذلك يحقق دنياه طيبة طاهرة ثم هو يمتطيها الى الدار الآخرة .. فهى خادمة له وليس هو خادما لها أن سيدنا رسول الله لى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يشخص الدنيا للمؤمن ويحدد معالمها ليعرفها المؤمن ويقدرها قدرها فيقول فيما رواه الإمام مسلم :

الدنيا خضرة حلوة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون

فالمؤمن ينظر إلى الدنيا نظرة الخليفة المسئول بين يدى من خلقه عليها :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٠] .

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الحديد : ٧]

فالإنفاق يعنى كسب المال الذى ينفقه ويتصدق به وعلى ذلك نرى المؤمن ينمى نفسه ، وينمى ماله .. وفى غير ما يغضب الله عز وجل .

إذ أنه فى مسيرته فى الحياة يحاول أن يشبع حاجاته مدفوعا دائما بدوافع الدين وحب الحلال .. وتنفيذ أوامر الله وتجنب نواهيه .

فالمؤمن لا تغلبه الشهوات

وإذا تعرض للصراع النفسى الذى يقع عادة من الدوافع النفسية فإنه يحل هذا الصراع دائما الحساب دينه وحساب الله عز وجل مهتديا بهدى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم إذ يقول فيما رواه الإمام الترمذى وأحمد وابن ماجه :

الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى " .

والمثل الأعلى للمؤمن هو سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم .. فهو يترسم خطاه ، ويقتدى به في حل هذا الصراع الذى ينشأ بين الدوافع المادية والدوافع الروحية فى نفسه .

وإن العلم الحديث قدم لنا برهانا على التكامل المعجز فى شخصية المؤمن .

فيقول أستاذنا الدكتور محمد عثمان نجاتى فى كتابه الحديث النبوى وعلم النفس طبعة دار الشروق ص ٤٥ .

" وكان الرسول عليه الصلاة والسلام مثالا نموذجيا للشخصية السوية التى توازنت فيها الحاجات البدنية والحاجات الروحية ، فكان عليه الصلاة والسلام يشبع دوافعه البدنية الفطرية ، فكان يأكل ويشرب وينام ويتزوج . كما كان يشبع

دوافعه الروحية فيعبد الله تعالى فى شفافيه روحية ، وصفاء قلبى ، وتوجه كـلمل الى الله تعالى بقلبه وجوارحه فى خضوع تام . وعن أنس رضى الله عنه أن النـــبى ﷺ قال : حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة " أخرجـــه النسائى وأحمد والحاكم .

إن مثل هذا التوفيق بين الجانب المادى والجانب الروحى فى طبيعة الإنســـان يصبح ممكنا إذا قام الإنسان بإشباع كل من دوافعه البدنيـــة والروحيـــة بتوســـط واعتدال ، ومن غير إسراف أو تطرف .

فليس فى الإسلام إباحية مطلقة فى اشباع الدوافع البدنية ، بـــل إن الإســـلام يوجب التحكم فيها والسيطرة عليها بحيث تشبع فقط بالطرق المسموح بها شرعا .

كما أنه ليس فى الإسلام رهبانية تدعو الى الحرمان من بعض دوافعنا البدنيـــة الفطرية .

فعن عروة قال :

دخلت امرأة عثمان بن مظعون أحسب أنها خولة بنت حكيم على عائشـــة وهى بازّة الهيئة فسألتها ما شأنك فقالت : زوجى يقوم الليل . ويصوم النهار .

فدخل النبى ﷺ فذكرت عائشة ذلك له .. . فلقى رسول الله عثمان فقـــال : " يا عثمان !! إن الرهبانية لم تكتب علينا . أفما لك فى أسوة ؟ فوالله إنى أخشـــاكم لله وأحفظكم لحدوده " . أخرجـــه أحمـــد

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال له :

" يا عبدالله ألم أخبر أنك تصوم النهار ، وتقوم الليل ؛ قلت بلى يا رسـول الله قال : " فلا تفعل . صم وافطر وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا .. وأن لعينـــك عليك حقا...وان لزوجتك عليك حقا ...

انتهى كلام الأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتى بسنده .

الخلاصة:

قلنا أن المسلم هو حامل لواء الدعوة إلى الله ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبـــه وسلم فى هذه الحياة الدنيا ورددنا فى ذلك قول الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الصف: ١٠-١١]

وعلى ذلك فالجهاد فى سبيل الله يتطلب شيئين : النفس ... والمال ....

فالنفس هى الإنسان ذاته وزوجته وولده والمرأة من متاع الدنيا : قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الروم : ٢١]

والولد يرزقه الله إياه من هذه الزوجة :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : ٤٦]

وأما المال :

فإن المؤمن يكسبه من حلال وينميه وهو مسئول عن تنميته .

وهو عصب الاقتصاد فى المجتمع الإسلامى فلابد من تنميته حتى يستجيب لإشباع حاجات المجتمع المسلم.

وحيث أن المسلم مطالب بالجهاد فى سبيل الله فإنه مطالب بالاستعداد لهذا الجهاد لحراسة الدعوة إلى الله ورسوله والذود عنها .

والاستعداد يكون استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى الذى يقول فيه:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنفال :٦٠] .

كل ذلك مطالب به المؤمن فى هذه الحيا ة الدنيا وهذا لا يتحقق بأعتزاله للدنيا.

وإنما يتحقق بإقباله عليها والأخذ بعنانها ليسخرها لخدمة دينه... طاعة لمولاه عز وجل...

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤١].

الطفل المبارك

بين يدي

سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم

قال له مجيبا على سؤاله

من أنا قال: أنت رسول الله

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾. [سورة الأحزاب : ٤٥ – ٤٨]

قصة هذا الطفل الوليد :

جاء فى كتاب حجة الله على العالمين تأليف العارف بالله يوسف إسماعيل النبهانى فى الجزء الثانى ص ٣٥ نبأ هذا الطفل كالأتى:

أخرج البيهقى والدارقطنى والحاكم والخطيب البغدادى عن معرض اليمامى قال: حججت مع النبى ﷺ فى حجة الوادع فدخلت دارا بمكه فرأيته ﷺ فيها ...

ووجهه مثل داره البدر ورأيت منه عجبا جاء رجل من أهل اليمامة بغلام يوم ولد.

وقد لفه فى خرقه .

فقال له رسول الله ﷺ :

"يا غلام من أنا ؟ "

قال الغلام :

" أنت رسول الله "

قال له رسول الله ﷺ :

صدقت . بارك الله فيك

ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شب فكنا تسميه

مبارك اليمامة

قال الحافظ السيوطى فى الخصائص الكبرى قد وقعت رواية هذا الحديث من طرق فهو حديث حسن لم يكن لمعرض اليمامى راوى الحديث أن يتعجب من هذا الحادث الذى هو عبارة عن معجزة لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم صحيح فإن الطفل كان قد ولد فى نفس اليوم الذى عرضه أبوه على سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم واحتضنه الرسول عليه الصلاة والسلام بالرحمة التى تميز بها حتى صارت هى جوهرة الحقيقى ، وذاته الشريفة .

وكل صفاته النبيلة حتى قال له الله رب العالمين **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [سورة الانبياء : ١٠٧]

وصحيح أنه لم ينتظر من طفل وليد ساعات أن يكون طرفا فى حوار يتكلـــم فيه بأروع شهادة بعد الشهادة لله الأعظم بالألوهيـــة والوحدانيـــة ... ألا وهـــى الشهادة بأن

محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

فسأله هذا النبى العظيم فى تواضع لم يسبقه إليه أحد من الناس و لم يلحقه بـــه أحد من الناس – يا غلام من أنا ؟

فيرد الغلام على البديهة وبسرعة .

– أنت رسول الله .

وصحيح أن القوم فوجئوا بهذه الكلمات تصدر عن طفل عمره ساعات.

لكن الصحيح أيضا أن هذا الحادث ليس جديدا على نبى الله،ورســـول الله، وصفى الله المرسل كافة للناس أجمعين .وليس عجيبا لأن الذى أنطق هذا الطفـــل بهذه العبارة هو الله عز وجل وهو الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظـــهره علـــى الدين كله وكفى بالله شهيداً .

ولقد روى الإمام الفضيل بن عياض رضى الله عنه وأرضاه وهو عالم جليـــل وإمام فاضل فى كتابه القيم " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " من الأخبار المحققة ، ومن الأحاديث المروية عن طريق الثقات ما يثبت قلوب المؤمنين على حب ســـيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم والتصديق به وبما جاءنا بـــه من رسالة الإسلام .

وقد قدم هذا الإمام الجليل لهذه الأخبار بأنه قد اجتمع على معنى حديث هـــذا الفصل بضعة عشر من الصحابة رواه عنهم أضعافهم من التابعين ثم مـــن جـــاء – بعدهم وأكثرهم فى قصص مشهورة ومجامع مشهودة ولا يمكن التحدث عنـــها إلا بالحق ، ولا يسكت الحاضر على ما أنكر منها .

كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابة الأشجار لدعوته .

عن عبدالله بن عمرو رضى عنهما

١– عن ابن عمرو قال :

" كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فدنى منه أعرابى .

فقال يا أعرابى أين تريد ؟

قال الأعرابى : إلى أهلى .
قال رسول الله ﷺ
" هل لك إلى خير ؟
قال الأعرابى
وما هو ؟
قال رسول الله ﷺ
" تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله .
قال الأعرابى :
من يشهد لك على ما تقول :
قال رسول الله ﷺ :
هذه الشجرة السمرة : وهى بشاطئ الوادى فجاءت تخد الأرض حتى قـامت بين يديه ﷺ فاستشهدها ثلاثا .
فشهدت أنه كما قال . ثم رجعت إلى مكانها
٢- وعن بريرة :
سأل أعرابى النبى ﷺ آية :
فقال له ﷺ
" قل لتلك الشجرة :
رسول الله ﷺ يدعوك
قال :
فمالت عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها ثم جاءت تخـدُّ الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدى رسول الله ﷺ فقالت :
السلام عليك يا رسول الله
قال الأعرابى : مرحاً فلترجع إلى منبتها : فرجعت فدلت عروقها فاستوت .
فقال الأعرابى :
ائذن لى : أسجد لك
قال رسول الله ﷺ
" لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ...

قال فإذن لى أن أقبل يديك ورجليك فأذن .

٣- وفى حديث جابر بن عبدالله الطويل فى الصحيح : ذهب رسـول الله ﷺ يقضى حاجته فلم يجد شيئا يستتر به فإذا بشجرتين بشاطئ الوادى فانطلق رسـول الله ﷺ إلى أحديهما فأخذ بغصن من أعضائها فقال :

انقادى على بإذن الله " فانقادت معه كالبعير الخشوش الذى بصانع قائده .

وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك حتى إذا كان بالمنصف بينها .

قال : التئما " على بإذن الله ..

وفى رواية أخرى فقال يا جابر قل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله ﷺ :

ألحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما :

ففعلت فرجعت حتى لحقت بصاحبتها فجلس خلفهما فخرجت أحضر .

وجلست أحدث نفسى فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مقبلا والشـجرتان قـد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق .

فوقف رسول الله ﷺ وقفة فقال برأسه هكذا يمينا وشمالا .

الحيوان يتكلم بين يدى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلـى آلـه وصحبه وسلم:

١- عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

إن رسول الله ﷺ كان فى محفل من أصحابه إذ جاء أعرابى قد صاد ضباً

(الضب حيوان برى يعيش فى الصحراء وكان البدو يصيدونه ويشوونه ويأكلونه)

فقال الأعرابى من هذا ؟

يشير إلى رسول الله ﷺ

قال الصحابة : هو نبى الله

قال الأعرابى : واللات والعزى لآمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب !!

وطرحه بين يدى النبى ﷺ

فقال النبى ﷺ له :

ياضب !!

فأجابه الضب بلسان مبين يسمعه القوم جميعاً : لبيك وسعديك

يا زين من وافى القيامه !
قال رسول الله ﷺ للضّب .
- من تعبد؟
قال الضب
- الذى فى السماء عرشه
وفى الأرض سلطانه
وفى البحر سبيله
وفى الجنة رحمته
وفى النار عقابه
قال له رسول الله ﷺ
- فمن أنا ؟
قال الضب
- رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك وخاب من كذلك فأسلم الأعرابى

٢- نبأ الذئب الذى تكلم بالدعوة إلى الله :

يقول الإمام الفضيل بن عياض فى كتابه الشفا " ومن ذلك أيضا قصة كلام الذئب المشهورة عن أبى سعيد الخدرى :

بينما راع يرعى غنما له تعرض الذئب لشاة منها فأخذها منه فأقعى الذئب . وقال للراعى :

ألا تتقى الله خلّ بينى وبين رزقى

قال الراعى :

العجب من ذئب يتكلم بكلام الأنس

قال الذئب :

أنت أعجب . واقفا على غنمك وتركت نبيا لم يبعث الله نبيا قط أعظم منه قدرا . قد فتحت له أبواب الجنة واشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم .. وما بينك وبينه إلا هذا الشعب .

فتصير فى جنود الله :

قال الراعى
- من لى بغنمى ؟
قال الذئب
- أنا أرعاها حتى ترجع .
فأسلم الرجل إليه غنمه ومضى وذكر قصته وإسلامه ووجده النبى ﷺ يقاتل .
فقال له النبى ﷺ :
-عد إلى غنمك تجدها بوفرها
فوجدها كذلك
وذبح للذئب شاة منها
(كل هذه الأخبار منقولة من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للإمام الجليل الفضيل بن عياض الشهير بالقاضى عياض بن موسى :
من كتاب التراث العربية (مكتبة دار التراث)
أيها القارئ الكريم
إن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وهو سيدنا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف ، لم يدع رسالته أدعاء من عنده بغير دليل .
إنما الثابت باليقين أن الذى خلقه واصطفاه وأرسله للناس أجمعين إنما هو الله رب العالمين وذكره هو نفسه بذلك .. وخاطبه بذلك فى القرآن الكريم : فى قوله سبحانه وتعالى فى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ●وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ●وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا ●وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥-٤٨] .
وأمره ﷺ أن يجلجل بهذه الحقيقة ويملأ بها أسماع الدنيا... ويصدع بها فتخشع لها قلوب الناس أجمعين".
فقال له فى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٨].

وخاطب الناس جميعا بهذه الحقيقة فى صريح البيان وواضح القرآن: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠].

وقال أيضا فى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۞ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الجمعة: ٢-٣].

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۞ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُون ﴾ [سورة البقرة: ١٥١- ١٥٢].

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٤].

لقد أكد الله سبحانه وتعالى على هذه الحقيقة حقيقة أن سيدنا محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

ثم بين إرادته عز وجل فى تأييد هذا النبى ونصره حتى يظهره ويظهر معه الإسلام على الدين كله فقال فى ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [سورة الفتح: ٢٨].

محمد رسول الله والذين معه أشداء علي الكفار رحماء بينهم

ثم أمره بالتبليغ بقوة وثبات فى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٦٧].

فى هذه الآية وما ذكرناه من قبلها نرى أن الله قد تكفل لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بالنصر والتأييد والحفظ والعصمة والسلامة ونصر الله له وتأييده إياه يأخذان صورا متعددة منها المعجزة...

وهى كما قلنا عمل خارق يجريه الله سبحانه وتعالى على خلاف العادة والمألوف متحديا به الخلق ومؤيدا به نبيه ورسوله...

وقد سلم بوقوع هذه المعجزات وسماها الآيات الحسية أستاذ الأجيال وإمام القرن الرابع عشر الهجرى الإمام محمد أبو زهرة أسد الإسلام وفقيهه. فى كتاب خاتم النبيين فى الجزء الأول ص٤٦٢ وما بعدها ذاكرا أن هذه الآيات الحسية كانت استجابة لهذا الدعاء الذى دعاه سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فى يوم الطائف حيث شكا ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس فأجرى الله سبحانه هذه الآيات الحسية ومنها إنشقاق القمر وحادث الإسراء والمعراج وغير هاتين الواقعتين مما ذكر هذا الإمام فى كتاب ذلك وكان أيضا تـأييدا له وإيناسا لبيان أن الله سبحانه وتعالى لم يتركه.

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [سورة الضحى: ٣].

وليس هذا الإمام وحده وإنما أقر بوقوع هذه الآيات الحسية بدرجة اليقين المغفور له غزالى القرن الرابع عشر الهجرى الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق بل وأفرد لهذه المعجزات بحثا مستقلا فى كتاب صدر بإسمه.

وكذلك إمام أهل السنة المغفور له العارف بالله الشيخ محمود خطاب السبكى وهو عالم جليل له مكانته الرفيعة بين أهل العلم أقر بذلك فى جميع ما كتب بل وأفرد لها بابا فى كتاب صدر بإسمه وسماه المقامات العليه فى أصل النشأة النبوية.

ومن كل ما تقدم يصبح القلب مطمئنا إلى هذا الحوار الذى حدث بين سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبين طفل اليمامة المبارك.

ماذا قال هذا الطفل لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه و على آله وصحبه وسلم عندما سأله من أنا.

لقد رد قائلا

أنت رسول الله

فصدقه رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

لقد قرر هذا الطفل الحقيقة التى بدأت بها أول حزمة من ضوء أنارت الدنيا للإنسان ليبدأ بها فجر الحياة...

هذه الحقيقة التى ملأت بنورها الوضاء عينى آدم وقلبه حيث بزغ فجرها أمامه كلمات مضيئة على ساق العرش فسأل ربه عن صاحب الأسم الذى اقترن ذكره بذكر الله فى السطر المكتوب.

وكان نورها يسطع فى جبين نوح عليه السلام فنجاه الله من الطوفان...

وقيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك...

وكانت مع إبراهيم عليه السلام إذ تجرد قومه من الإنسانية فألقوا به فى جوف نار متأججة بلغت ألسنتها عنان السماء...

فمن أجل محمد رسول الله

نادى الله النار

" يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم" ومن أجل هذه الحقيقة النورانية سلب الله سبحانه صلاحية الذبح من سكين إبراهيم فلم يتمكن من ذبح إسماعيل.

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة الصافات: ١٠٣- ١٠٧].

بل إنه الحقيقة المسطرة فى توراه موسى عليه السلام وفى صفحه المطهرة.. ولهج لسانه بها وناجى بها الله رب العالمين حيث تمنى أن يكون فردا فى أمة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وهو أيضا عطر ذكره إنجيل عيسى عليه السلام وسار به هذا النبى يصدع باسمه فيملأ به آذان بنى إسرائيل ويقر به أعين الحواريين " ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد" .

وهو النور الذى حفظه الله فى إهاب أبيه عبد الله بن عبد المطلب فوقاه من الذبح يوم أرادة أبوه وفاء لنذره.

ومنع العرب عبد المطلب من ذبح ولده عبد الله وفدوه الإبل طالبين أن يفدوه بالأرواح.

بل هو الحقيقة التى تؤنس بأنوارها وحشة الإنسان على مر الزمان..

... تزف هذا الأنس إلى قلوب بنى الإنسان... المآذن تعلو المساجد وفوقها ترتفع الأصوات أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله تفرح القلوب وتطرب الأرواح وتطيب الحياة بذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ولم يفعل طفل اليمامة غير أنه ردد هذه الحقيقة فملأت الأسماع... وجلت الأبصار وأذهبت الأحزان، وأضاءت الأفراح وزينت الأرض.. واخترقت أنوارها عنان السماء.

وإننا نهتف جميعا مع طفل اليمامة المبارك

نشهد أن لا إله إلا الله

ونشهد أن محمداً رسول الله

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

الفهرس